حكايات أندلسية

٢

المجوس النورمان

تأليف

محمد عبدالفتاح حسين عيسى



حكايات أندلسية ، مجموعة قصصية رائعة فيها يعرض المؤلف صورة من تاريخ المسلمين في الأندلس في صورة قصصية، وبأسلوب ميسر جذاب، فأنت عندما تبدأ القراءة لن تستطيع التوقف إلا في نهاية القصة، ثم تعاود القراءة مرة ومرة، وسيأخذك المؤلف في رحلة إلى طبيعة الأندلس الخلابة، وستقف معه لتشاهد قصورها العامرة، ومدنها قرطبة، طليطلة، قبطيل........ ستعتلي خيل قرطبة، وتنبهر بشخصيات لا ينساها تاريخ الأندلس.

فمن وعى التاريخ في صدره أضاف أعمارًا إلى عمره

الناشر

حكايات أندلسية

٢

المجوس النورمان

حكايات أندلسية ٢

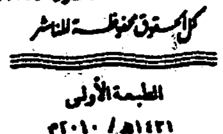
المجوس النورمان

تأليف

محمد عبدالفتاح حسين عيسى



الإدارة: ١٢٩ الزهراء ـ مدينة نصر ـ القاهرة.
تليفاكس: ٤٤١ ١١١ ٢٤ ٢٠٢ ٠٠٢ ـ محمول: ٠١٦٨٨٣٣٥٤٥
مركز التوزيع: ٣٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ـ القاهرة.
هاتف: ٢٥١٤٩٦٣٣ ٠٢ ٠٠٢ ـ محمول: ٠١٦٨٨٣٣٥٢٤



الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢١٠٢٤/٢٠٠٩
الترقيم الدولي
I.S.B.N. 978-977-489-030-7

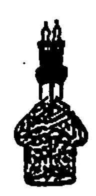




المجوس النورمان

تأليف

محمد عبدالفتاح حسين عيسى




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

انكمش في أحد أركان القبو المظلم وهو يسمع خطوات الجنود القشتاليين من فوقه وتسارعت أنفاسه حتى ظن أنها سترشدهم إليه فازداد انكماشه وتصاعد الدم إلى رأسه حتى إنه لم يعد يسمع سوى ضربات قلبه وكأن الوقت قد توقف وفجأة انفتح الباب فأغمض عينيه حتى يحميها من الضوء المفاجئ وشهق في رعب:

"لا تخف لقد رحلوا"

فتح عينيه في هدوء ليرى الوجه الصبوح الذي يقف أمامه:

"رحلوا"

"نعم أنا لم أنزل إلى هنا حتى تأكدت من رحيلهم"

"سأرحل الآن حتى لا أسبب لكم أذى"

"إنهم منتشرون بالمدينة ولو خرجت قد تقع في أيديهم"

"وما العمل الآن؟"

"أن تبقى هنا حتى تهدأ الأمور"

"قد يكتشفوا القبو"

"لا تخف لقد أتقن أبي صنعه ليخفي فيه كتبه حتى لا يصل إليها القشتاليون فكما

تعرف لو وقعت بين أيديهم لأحرقوها"

"سأثقل عليكم"

"على العكس فأنت وكل الثائرين تستحقون الكثير"

"أرى ورقاً ومداداً"

"نعم إنهم لأبي"

"هل أستطيع أن أستخدمهم؟"

"بالطبع هل تحب الكتابة؟"

"إنني فقط أكتب بين الحين والآخر لأحفظ لغتي من أن تأكلها لغة القشتاليين"

"وماذا تكتب؟"

"أسجل أقاصيص سمعتها من أبي عن تاريخنا في هذه الأرض"

"بكل تأكيد سأقرؤها"

"بالطبع"

"سأتركك الآن لتستريح خذ هذا المصباح لتستعين بضوئه"

خرجت وتركته بين الأوراق والكتب

فأمسك القلم وبدأ يكتب

* * *

النورمان

"بروفسور خوسيه هل أستطيع الدخول؟"

نبهت عبارة كارلوس بروفسور خوسيه المنكب على أوراقه في شغف فرفع رأسه وفي عينيه نظرة تائهة ثم بدا وكأنه استوعب الموقف دفعة واحدة

"آه مرحبًا كارلوس تستطيع الدخول هل هناك جديد"

"لقد انتهى العمل في القبو ولم نجد شيئًا آخر ذا قيمة"

"لا شيء بخلاف المخطوطة؟"

"لا شيء لقد كانت الشيء الوحيد القيم في هذا القبو"

"إنها قيمة جدًا حقًا"

ثم قال في حيرة:

"فقط لو كان كاتبها حفظها مرتبة"

"إلى هذه الدرجة! أذكر أنني وجدت قصة ألفونسو السادس متتابعة "

"لقد كنت محظوظًا يا كارلوس"

"ماذا يا سيدي؟"

"لقد كنت محظوظًا في هذا هل قلت شيئًا

عجيبًا؟! بقية الأوراق غير مرتبة وكأنك تحل لغزًا"

ثم نظر إلى مكتبه من تحت نظارته وتناول ورقة من على المكتب واستطرد:

"فهذه مثلاً قد فشلت حتى في الوصول إلى أخواتها، وعلى ما يبدو فإنها تحوي جزءًا من قصة كاتب الأوراق نفسه"

"هل كتب قصته؟"

"يبدو ذلك، ولكنني لم أقابل سوى هذه الورقة حتى الآن"

"لعلنا لو حاولنا سنتصل"

"حاول"

نظر كارلوس إلى الأوراق المكدسة في

الصندوق والأوراق المتناثرة من حوله ورفع بعضها وتصفحها قليلاً ثم ردها إلى مكانها

"أفضل ياسيدي أن أستفيد من المجهود الذي بذلته"

ابتسم بروفسور خوسيه في وقار:

"أليس كذلك؟"

"بلى يا سيدي"

"انظر يا كارلوس أنا أمسك كل ورقة وأطالع محتواها وأفصل كل مجموعة لها نفس المحتوى وأبدأ في ترتيبها"

"أظن أن هذا مرهق للغاية"

"هكذا العلم"

وصمت قليلاً وهو ينظر إلى رد فعل مساعده

وتلميذه ثم استطرد وهو يبتسم ابتسامته المعهودة:

"على كلٍ الأمر ليس بهذا السوء، فعلى الرغم من أن الورق كما يبدو قد جمع على عجالة بصورة عشوائية إلا أن بعضه ظل مرتبًا مثل القصة التي وجدتها أنت في البداية، وأحيانًا تظهر مجموعة ينقصها ورقة أو ورقتان"

"مثل هذه التي أريتني إياها؟"

"تمامًا، ثم أبدأ في النقل وإكمال الناقص والتالف، والتعليق على المواضيع المنتهية هكذا مثلاً"

"ما هذه؟"

"هذه إحدى القصص التي انتهيت منها: إنها

عن غزو الفايكنج لسواحل الأندلس"

"هل جاء الفايكنج إلى سواحل الأندلس؟"

"ألا تعلم حقاً؟"

"أنا أعلم أن الفايكنج نزلوا بالجزيرة الإنجليزية، وبسواحل فرنسا وروسيا، وغيرت هجراتهم تشكيل قارة أوروبا، ولكن أنا لا أذكر أن لهم دورًا في تاريخ الأندلس"

"أنا لا أعلم كيف فاتك شيء مثل هذا، ولكن هذا حدث أكثر من مرة، وكانت الأولى في عهد عبدالرحمن ابن الحكم الأمير الأموي"

"أكثر من مرة!!!"

"هذه الأوراق تقص ما حدث في هذه المرة

التي ذكرت لك"

"وهل استطاع الكاتب تمييز كونهم الفايكنج؟"

"لا تنس كون الكاتب عاش في فترة متأخرة جعلته ملمًّا بالأحداث السابقة له، وعلى الرغم من عدم معرفة العرب بالفايكنج في البداية، ونعتهم إياهم بالمجوس. خاصة وأن هذه القبائل كانت لا تزال على وثنيتها، إلا أنهم اتصلوا بهم وبعثوا رسولاً إلى بلادهم والتي يظهر - من وصف هذا الرسول- أنها الدنمارك"

"وهل لازال الكاتب يقحم نفسه على الرواية القشتالية؟"

"هـذا أمـر طبيعـي؛ فكـون الكاتـب مـن الموارِكـة يمكنـه مـن الاختلاط بالقشتاليين؛ ممـا يـسهل اخـتلاط تـاريخهم ورواياـاتهم بموروثاته"

"هل أستطيع قراءتها؟"

"أظن ذلك وخاصة أنه لايجب أن تفوتك هذه الرؤيا الجديدة للأحداث"

* * *

دب الـذعر في كـل أرجـاء جليقيـة، وعمَّـت الفوضـى في مـدنها وقراهــا، وارتفـع صـراخ الصغار الـتي انتقلت لهم حمـى الرعـب، وتقـدم الملـك "راميرو" ابـن الملـك "ألفونـسو الثـاني" في طريقـه بـين هـذه المـدن والقـرى الخائفـة مُيَمِّمًـا

تجاه البحر، وعلى الرغم من محاولته اليائسة لإظهار بأس أمام أهل مملكته إلا أن خطوات خيلهم كانت تكشف خورًا عظيمًا في عزيمتهم، وكانت عيون الناس تشيعهم إلى الساحل الذي علقت به العيون عندما امتلأ أفقه بمراكب مميزة الشكل طالما سمعوا عنها من جيرانهم الفرنسيين، مراكب مستطيلة ذات عرض صغير بالنسبة لطولها، مقدمتها على هيئة تنين يبحر بها رجال الشمال شقر الرءوس، أولئك الذين عرفت أوروبا كلها وحشيتهم، إنها مراكب النورمان. لم يتخيلوا ذلك اليوم الذي سيهدد هذا الخطر سواحلهم، ولم يحسبوا له أي حساب.

احتشد الجند أمام الساحل وتقدمهم الملك "راميرو" وهم يراقبون المراكب في قلق منتظرين أن يروا ماذا ينتوي هؤلاء البربر، وضاعت أصوات المحتشدين في أحشاء البحر الهادر، فوقفوا صموتًا لا يجرؤ أحدهم على الكلام حتى قطع هذا الصمت أحد الفرسان القريبين من الملك "راميرو":

"هل نهاجمهم يا مولاي؟"

نظر إليه "راميرو" في امتعاض وقد أثارته كلمة الفارس:

"تريد أن تهاجم أصحاب المراكب هؤلاء التي نراها في البحر؟!"

فرد الفارس في حماس:

"نعم يا مولاي"

"ونحن هنا على البر؟!"

"نحن فداء مولاي"

صاح "راميرو" بغضب هادر، وقد استفزه رد الفارس:

"اصمت يا أحمق لا أريد أن أسمع صوتك مرة أخرى"

هنا تقدم فارس آخر في سرعة من الملك الغاضب:

"مولاي إنه فقط يقصد أن يسأل عن نية مولاي ولكنه لا يحسن اختيار كلماته"

"ماذا دهاك يا غرسيه هل أصابتك عدوى الحماقة أيضًا؟ هل ترى حلاً سوى أن نمكث

هنا على هذا الشاطئ اللعين حتى نعرف ماذا ستفعل هذه المراكب اللعينة؟"

"هل آمر الرجال بتهيئة المعسكر؟"

تأفف الملك في ضجر:

"نعم .. نعم"

ثم التفت إلى الواقفين مهددًا:

"من أراد منكم أن يحتفظ برأسه اللعينة فوق كتفه فعليه أن يكون متيقظًا حذرًا، فهؤلاء الرجال لا يتحدثون إلا بالسيوف"

نزل الملك "راميرو" من على فرسه، وسار بين جنوده الذين انشغلوا بإعداد المعسكر، وهو يلقي إليهم إرشاداته، ثم دعاه القلق من جديد للنظر إلى البحر محاولاً إحصاء المراكب

الموجودة بالبحر:

"اللعنة إن عددها يثير القلق"

"ليس عددها فقط يا مولاي انظر إلى عدد الرجال بداخل كل مركب، إنني أرتجف كلما رأيت هذا التنين في مقدمة هذه المراكب، وأشعر أنه يستعد لالتهامنا أحياء"

أسند راميرو مرفقه الأيمن براحته اليسرى، وأخذ يعبث بلحيته بيده اليمنى وفي عينيه نظرة ساخرة:

"أعتقد أنك تود إثارة ذعري؛ إن كنت تقصد ذلك حقًا فأنا أرتجف حقًا أيها الفارس"

"مولاي كنت فقط ...."

قاطعه "راميرو" غاضبًا:

"لا أريد أن أسمع هذه السخافات من جديد"

"أردت أن ...."

رفع "راميزو" إصبعه مهددًا وهو يضغط على كل كلمة:

"قلت لا أريد أن أسمع، الا تفهم"

واستدار مخاطبًا الجميع بصوت جهوري:

"أيها الرجال أعلم أنكم مرهقين من القتال ولكن هذا قدرنا أن نظل نقاتل، لقد انتصرنا على هذا المتمرد كونت ريوتيانوس، ولا أظن أنه سيشق عليكم مجموعة من البربر القادمين من البحر، إن من يتحدثون عن قوة هؤلاء ووحشيتهم ليسوا في براعتنا الحربية ولو وطئوا أرضنا، أريدكم أن تأتوا لي بقائدهم لكي

أسمل عينيه بنفسي كما سملت عيني ريوتيانوس"

وصمت قليلاً ونظر في عيون رجاله ثم استطرد:

"ومن لا يرى في نفسه الكفاءة على هذه الحرب، أو يشعر بالخوف، أو ينتابه الذعر فليعلن ذلك الآن؛ لأسمل عينيه وألحقه بريوتيانوس في الدير، فهو لا يستحق سوى ذلك".

صاح الجنود في حماسة:

"كلنا فداء مولاي .. كلنا فداء مولاي"

"كونوا على أهبة الاستعداد وسأذهب لأحشد المزيد من الرجال. أروا هؤلاء النورمان

كيف يقاتل الجلالقة؛ ليعلموا أنهم انتصروا من قبل؛ لأنهم قاتلوا بعض النساء والأطفال والمزارعين الذين لا يجيدون حمل السيوف"

تصايح الجنود في حماس، وسار بينهم وهم يهتفون له حتى وصل إلى فرسه وامتطاه والصيحات من حوله تصارع هدير البحر ولم يكد يجذب لجام فرسه حتى التفت إليهم من جديد:

"أين الفارس غرسيه؟"

تعالت الأصوات منادية على الفارس غرسيه فأقبل مسرعًا

"أمر مولاي"

"أريد أن أرسلك في مهمة عاجلة"

"أنا في خدمة مليكي"

"أريدك أن تذهب إلى بسكونية؛ لتبحث لي هناك عن أي فرنسي قدم من جهة نهر الجارون لنستقصي منه أخبار هؤلاء، وانتبه إلى أنه يجب أن يكون مجيدًا للغتهم هل تفهمني؟"

"نعم يا مولاي تريد خبيرًا بهؤلاء"

"ليس فقط خبيرًا بل يجيد لغتهم أنا أعتمد عليك اعتمادًا كليًا غرسيه"

"أنا في خدمة مولاي "راميرو""

"إن إنجازك المهمة في الوقت المناسب سيدعمنا أيما تدعيم"

"متى يأمرني مولاي بالذهاب؟"

"من فورك، خذ عدتك وانطلق"

انطلق الفارس غرسيه ليستعد لرحلته

الطويلة التي كلفها به الملك "راميرو" الذي واصل رحلته لحشد المزيد من الرجال من كل أنحاء جليقية.

* * *

انسابت قوارب النورمان خلسة في نهر منهو وقد اتخذت الظلام الدامس ستارًا لها ، ومع انبلاج ضوء الصبح نزلت فرقة منهم على ضفة النهر، وانطلق صوت بوقهم المنفر ليوقظ كل سكان القرية ، وأخرجتهم صيحات النورمان العالية من دورهم مذعورين؛ ليحجب عنهم الدخان الكثيف المنبعث من أكوام القش المشتعلة الرؤية ، وقبل أن يفيقوا من ذهولهم انشق الدخان عن رجال شقر كل منهم يمسك

بإحدى يديه سيفًا والأخرى فأسًا ، وما إن وقعت عيونهم على ما في أيدي الرجال حتى أطاحت السيوف بالأعناق وهوت الفئوس على الرءوس.

لم يكن حتى هناك وقت للصراخ، وتبلبلت العقول، والنار تحيط بهم ورجال الشمال يعملون فيهم القتل ويلقون بالأخشاب المشتعلة في كل مكان، في الحقول وفي داخل الدور فيخرج أهل الدور المختبئين فرارًا من النار فتطولهم السيوف والفئوس، وضحكات المهاجمين وأصواتهم العالية تجتاح المكان، ويرى الأطفال المختفيون في حظائر الطيور دماء آبائهم فيصيبهم الذعر ويعلو بكاؤهم فتمتد

أيـدي المعتـدين إلـيهم وتـسحبهم مـن أعنـاقهم.
وانتـشر الرجـال في أنحـاء القريـة يجمعـون مـا
يصلح للجمع من حلي وطعام وأطفال ونساء في
ساحة القرية الواسعة.

وفـي زهـوة المنتـصرين لم ينتبهـوا إلى ذلـك
الفتـى الـذي تـسلل بـين الـدور خلـسة، كانـت
عيناه تتابعهم ليتحين الفرصة للهروب وبمجرد
أن ابتعـد عـن القريـة حتـى أخـذ يزحـف بـين
الحقـول المـشتعلة حتـى لا يـراه أحـد وشـعر بيـد
تمسك بكاحله فأصابه الرعب، وأخذ يضرب
في خبـل بقدمـه الحـرة حتـى أفلـت مـن الـذي
أمسكه، وعندما نظر إليه وجد أنه كان أحد
المصابين الذين استطاعوا الفرار حتى وصل إلى

هذا المكان.

حاول الرجل في البداية تفادي ضربات الفتى، ولكنها أتت على ما بقي من قوته.

وشعر الفتى بحيرة شديدة هل يحاول معاونة الرجل في الفرار أم يتركه، وانتبه فجأة إلى خيط الدم الذي يتبع الرجل يا للكارثة هكذا سيلحق به المهاجمون، فانتصب واقفًا ناسيًا حذره وأطلق ساقيه للريح، لم ينظر إليهم عندما سمع صيحاتهم التي لا يفهمها فليس لها سوى معنى واحد.. أنهم رأوه، كان يسمع حشرجة صدره وأنفاسه لا تسعفه فتعثر في حجر وانكفأ على وجهه، وسمع أزيز الهواء عندما مر خنجر من فوقه تمامًا.

لو لم يتعثر لكان هذا الخنجر مغروسًا في ظهره الآن... ياله من محظوظ. وما كاد يلتقط أنفاسه حتى قام وجرى بعيدًا.. يبدو أنهم ظنوا أن الخنجر أصابه فتركوه وعادوا، إن هؤلاء القوم يثقون في أنفسهم بشدة، لقد نجا.. إنه لا يصدق أنه نجا، لقد ترك القرية كلها خلفه، ترك فيها أهله ما بين قتلى وأسرى، وترك فيها هؤلاء القتلة.

تركها حيث هؤلاء الرجال يضحكون ويهنئون أنفسهم بالنصر السهل والغنائم، لم يفهم الأسرى لغتهم الجرمانية، ولكن من قال إن مثل هذا الموقف يحتاج إلى لغة؟ ومنذ متى كان الأسير يواجه مشكلة في فهم لغة

المنتصر، عندما يعتمد على الصفعات والركلات. والتفت أحد الرجال الشقر إلى رفيقه:

"يبدو أنني سأحب هذه البلاد إن أهلها بارعون في أن يُقتلوا وقبل أن تغرب الشمس تصبح القرية كلها لنا"

"المعارك الحقيقية لم تبدأ بعد، لا تغتر بقتال بعض القرويين"

"ونحن أيضًا قرويون"

"ولكننا بارعون في القتال وفي ركوب البحر"

"إذًا طالما أننا بارعون في القتال فما الذي يخيفنا منه؟"

"أنا لم أقل إننا خائفون بل قلت إن المعارك الحقيقية لم تبدأ"

ورفع فأسه وقذف بها في سرعة لتتغرس في أحد الأبواب الخشبية، واستطرد:

"وأنا أتحرق شوقًا لمثل هذه المعارك"

* * *

كان أحد القرويين يهم بالعودة إلى داره عند الغروب عندما تعثر بجسد مسجى على الأرض، صرخ مذعورًا في البداية ثم امتدت يده إلى ذلك الجسد ليقلبه على ظهره ليتعرف من هو، وأقبل إليه جيرانه مسرعين على صوت صرخته:

"ماذا هنالك؟ لماذا تصرخ هكذا؟"

"قتيل .. قتيل"

امتدت أيدي الرجال الثلاثة إلى جارهم لتساعده على الوقوف

"من هذا هل يعرفه أحدكم؟"

"كلا"

"يبدو أنه غريب"

"انتظروا يبدو أنه على قيد الحياة"

وضع أكبرهم سنًا وأكثرهم خبرة يده على رقبته:

"إنه منهك بشدة وهذه الدماء ليست له، يبدو أنه جرى لمسافة طويلة"

"ماذا سنفعل؟"

"احملوه معي إلى داري"

امتدت أيدي الرجال إليه لترفعه ففتح عينيه وأشار إلى جهة النهر:

"إنهم قادمون"

"من هم؟"

" الشقر .. ذبحوا أهل القرية"

"الشقر"

وخارت قوى الفتى تمامًا وصعق الرجال المحيطون به:

"ماذا يقصد؟"

"ومن هم؟"

"هل هاجم العرب قريتهم"

رد الشيخ وهو يفكر في عمق

"لا أعرف ولكن العرب ليسوا شقرًا"

"أيًا كان المهاجم فنحن في خطر ويجب أن نأخذ حذرنا"

"ماذا سنفعل؟"

تكلم الشيخ من جديد بلهجة آمرة:

"يجب أن ننبه أهل القرية لتستعد"

"بمجرد شروق الشمس سأدور على كل بيوت القرية"

"قد لاتشرق الشمس على القرية ثانية"

"ماذا تعني؟"

"لنحمل المشاعل وننبه القرية"

"ألن نخبر الكونت؟"

"سأذهب إليه من فوري. احملوا هذا الفتى إلى بيت أحدكم، وليرعاه حتى يفيق لعلنا

نفهم منه ما حدث"

"ونحن سنتبعك إلى هناك بمجرد الانتهاء من كل ذلك"

"ولكن أسرعوا فلا أحد يعلم ماذا سيحدث"

* * *

استيقظ الكونت "جونزاليس" على صوت رجل يناديه بإصرار:

"من ذلك السخيف الذي ينادي بهذا الإلحاح؟"

رفعت زوجته رأسها وفتحت عينها بصعوبة وهي تتساءل:

"هل جاء الصباح بهذه السرعة؟!"

"واصلي نومك يا عزيزتي فالصباح ليس بهذه الحماقة"

"إذاً لماذا استيقظت؟"

"ألا تسمعين ذلك السخيف الذي ينادي؟"

حكت رأسها بيدها وقد اعتدلت في جلستها:

"حقاً ومن هو هذا السخيف؟"

رد الكونت في تأفف:

"عودي إلى نومك"

وقام من فراشه وهو يقول في ضجر:

"يا للجحيم ومن أين لي أن أعرفه ألست هنا إلى جوارك؟"

تدثر الكونت بثوب ثقيل وخرج إلى ردهة

داره، وصاح مناديًا على خدمه الذين اجتمعوا حوله:

"مال هذا الرجل يصرخ هكذا؟ لماذا لم تسكتوه؟"

"سيدي إنه يدعي أن الأعداء سيهاجمون قريتهم"

"ماذا؟"

ثم شرد قليلاً ثم واصل مستفسرًا:

"وكيف عرف؟"

"يقول إنهم وجدوا فتىً غريبًا يدعي أن أهل قريتهم ذبحوا"

"وهل صدقتم ادعاءه بهذه البساطة؟ إما أنه احمق أو أنكم حمقى"

"لقد احتشد معه كل أهل القرية بالخارج"

نظر الكونت من النافذة ليرى نار المشاعل التي أضاءت القرية كلها:

"يبدو أن كلام هذه المخبولة قد تحقق وجاء الصباح مبكرًا هذا اليوم"

ونظر إلى أحد الخدم:

"أحضر لي الشيخ فقط، هل فهمت؟ الشيخ فقط"

انطلق الخادم ورآه سيده من النافذه وهو يحدث الشيخ ليرافقه بعد أن يشير إلى الناس بالبقاء:

"سيدي الكونت أغثنا"

"كيف عرفت أن الأعداء سيهاجمون

المدينة؟"

"لقد وجدنا فتى مصابا .."

وسأله الكونت مقاطعًا :

"وأين الفتى؟"

"في بيت أحد جيراني"

"وماذا قال؟"

"قال: الأعداء قادمون"

"وماذا أيضًا؟"

"قال إنهم ذبحوا أهل القرية وإنهم شقر"

"من هم؟"

"العرب"

"هل قال ذلك؟ العرب"

"كلا ولكن لابد أنهم العرب"

"وهل العرب يوصفون بالشقر"

"سيدي"

"هل رأيت رسول الملك راميرو؟"

"أي رسول يا سيدي"

"الذي أخبرك أن النورمان الشقر يهددون مدينتنا"

"هل الفتى رسول الملك؟"

"بل أقصد الفارس الذي قابلته وأقنعك بأمر مقاتلي الشمال"

"أنا لا أفهم قولك يا سيدي"

"انظر أنا لا أفهم لأي خدعة يحاول المَلك جذبي، ولكن إن كان يريد المُلك فقد سيطر على الأمور بسمله عين الكونت ريوتيانوس،

وأنـا لا أشـكل أي عقبـة لـه، سـأقولها لـك صراحة: على الرغم من أني وعدت رسول الملك بتجهيز الجند إلا أنى لن أخرج ولن تتطلي علي خدعة الملك"

"أنا مخلص لسيدي الكونت ولن أشترك في أي أمر يحاك ضده"

"إذًا فأنت لا تعرف مقاتلي الشمال الغلاظ المتوحشين؟"

وشرد قليلاً وكأنما تذكر شيئًا، وشعر أن توتر موقفه مع الملك قد أفقده تركيزه، أو لعله الإرهاق ثم نظر إلى الشيخ:

"لقد قلت: العرب"

"نعم يا سيدي ولكن العرب ليسوا شقرًا"

"ولكنك لا تعرف عدوًا غيرهم، أو بمعنى أدق لا تعرف التورمان"

"أصلح الرب حياة سيدي الكونت"

"أريد رؤية الفتى"

"إنه غائب عن الوعي هل نحمله إليك يا سيدي؟"

"بل سأذهب معك فالأمر أكبر من أن أنتظر، ابقَ هنا حتى أستعد"

دخل الكونت إلى غرفته مسرعًا فوجد زوجته تنتظره على الباب:

"هل ستذهب إلى الحرب من جديد؟"

"هذه المرة الحرب هي التي ستأتي إلي هنا يا عزيزتي صدقيني، لم أكن أنوي الخروج مجددًا. لكنها هي التي جاءت هذه المرة"

* * *

المعركة

سار الكونت بين أهالي القرية محاولاً بث الطمأنينة بعد أن أذيع خبر العدو القادم، غير أن هذا لم يثنِ عزمَ أهل القرية الذين قرروا هجرها خوفاً من الذبح، واجتمع إلى الكونت أهل القرية الذين قرروا الصمود للدفاع عن قريتهم ينتظرون توجيهاته، وذهب حيث يرقد

الفتى

"ألم يفق بعد؟"

"كلا يا سيدي"

"الأمر لا يحتمل، يجب أن نعرف ما لديه"

تحرك الجميع في سرعة، ما بين صافعين وراكلين للفتى محاولين إفاقته

"كفى، أشكر الرب أني لم أفقد الوعي بينكم"

"سيدي إنه كالموتى"

"يكفي هذا، لن ننتظر إلى جواره كثيرًا فوقتنا محدود"

"بماذا تأمر يا سيدي؟"

"أولاً يجب أن نخبر الملك "راميرو" حتى يوفر

لنا الدعم اللازم"

"هل سنحاربهم يا سيدي؟"

" ليكن الرب في عوننا لو كان القادمون هم النورمان كما أخبرني الملك"

"هل هم بهذه الخطورة؟"

"لو لم يصل جيش الملك "راميرو" فنحن هالكون لا محالة"

والتفت الكونت إلى أحد جنوده:

"ستخرج الآن إلى الملك "راميرو" لتخبره أن النورمان وصلوا إلى كونتيتنا وأنهم ذبحوا أهل القرى هنا على نهر منهو، واعلم أن مصيرنا متوقف على نجاحك"

"أمرك يا سيدي"

"خذ فرسي فهو أفضل فرس هنا، اعلم أنني لم أعطه لك إلا لأني أعرف أنك أفضل رجالي، ولا أحتاج أن أكرر: مصيرنا يعتمد على نجاحك"

* * *

انتشر الجنود مع أهل القرية على شاطئ النهر وعلى مداخل القرية، وبدأ الضباب يلف القرية الخائفة ويغزو معه النعاس العيون التي لم تنم، متحالفاً مع البرد القارس ضد الأبدان المرهقة. لم يكن الرجلان الواقفان على النهر استثناء من ذلك، والتفت أحدهم من حوله ثم قال في ضجر:

"إنني لا أستطيع أن أرى في هذا الضباب"

"بالفعل الضباب كثيف الليلة"

"أشعر أن جفني ثقيلان"

"لا ، أرجوك؛ فالعدو قادم"

"لقد بدأت أشعر بالملل، هل تظن حقًا أن أحدهم يستطيع أن يرى في مثل هذا الضباب؟"

"هذا يدعونا لليقظة أكثر"

"أكاد أسقط من الإرهاق، اسمع لقد عزمت أمري، سأنام هنا تحت قدمك قليلاً لو حدث شيء فقط الكزني بقدمك وسأقوم فورًا"

لم ينتظر رد زميله، الذي نظر إليه بنظرات زائغة وهو يلف رأسه بثيابه ويجمع قدميه بيديه لينام، وبدأت غفوات قلقة تغزو عقله هو الآخر

"سأذبحك"

يفتح عينيه في قلق وينظر من حوله ليبحث عن صاحب الصوت فلا يجد أحدًا، أصوات لا يعرف كنهها ولا يعرف لها اتجاه، أسد يقف على قدميه يتقدم منه فيطيح بالسيف الذي في يد الأسد فيكشر عن أنيابه.

"أرني كيف ستتغلب على هذه الأنياب الحادة؟"

يصرخ ولكنه لا يسمع صرخته، يلكز زميله بقدمه فلا ينتبه؛ فيمد يده ليمسك بخصلة من خصلات الأسد فيجد نفسه يمسك بفرع شجرة، إنه حلم، لا بد أن يتخلص من هذه الغفوات القاتلة، يجب أن يظل متيقظًا،

يسمع صوتًا كأنه صوت ألف شيطان قادمين من الجحيم، إنه صوت بوق مزعج، أخذ يهز رأسه ليستيقظ، كلا هذه المرة لم يكن حلمًا إن الصوت يأتي من جهة النهر، لا إنه حلم أيضًا، لا بد أن أوقظ رفيقي لابد، وأخذ يلكزه بشدة حتى سمعه يتأوه

"إنه حلم لا بد أنه حلم"

"ماذا هنالك؟ ما الذي حدث؟"

"لا بد أنني نائم"

"ما هذا الصوت؟"

"إنه صوت الأسد يريد أن ينتقم مني"

قام الرجل وأخذ يهز كتف زميله:

"أي أسد؟"

"هذا"

نظر إلى حيث أشار زميله ليجد أن الضباب انشق عن رجل أشقر يمسك بإحدى يديه سيفًا والأخرى فأسًا، وهوى بالفأس على رأس الرجل الأول وأطاح رقبة الثاني بالسيف، وواصل تقدمه وهو يصرخ في انتصار.

* * *

وقف الملك "راميرو" على ساحل البحر يراقب مراكب النورمان في البحر ثم التفت إلى الفارس الذي يقف إلى جواره:

"هل جد جديد في الأيام الماضية؟"

"كلا يا مولاي"

"خمسة أيام كاملة دون أي محاولة للنزول

على الشاطئ؟!"

"ولا حتى الاقتراب يا مولاي"

"ماذا يريد هؤلاء؟ لا أظن أنهم خائفون منا"

"لعلهم سيرحلون"

"أو أنهم ينتظرون اللحظة المناسبة"

وارتفع صوت أحد الجنود:

"مولاي "راميرو" هناك رسول من الكونت "جونزاليس""

"ماذا يريد؟"

"يقول: إن العدو هاجم أراضيهم"

"احضره فورًا"

أشار الجندي إلى الفارس الذي وقف بعيدًا فتقدم وركع بين يدي الملك، وقد بدت عليه

وعثاء السفر:

"مولاي "راميرو" إن سيدي "جونزاليس" يخبرك أن النورمان اقتحموا أراضينا من نهر منهو"

"وأين هو الآن؟"

"لا أعرف، لقد تركتهم وهم يستعدون للقتال، ولكنني ما كدت أن أبتعد حتى رأيت أعمدة الدخان تتصاعد من خلفي"

رد الملك "راميرو" على الرسول وهو يشير إلى المراكب القابعة في البحر:

"ولكن النورمان لا زالوا بسواحلنا لم يتحركوا"

ثم انتبه فجأة

"يا للشياطين نحن لا نعرف عدد مراكبهم لا بد أن عددًا من المراكب قد .."

وصمت في ذهول فاستطرد الفارس:

"لقد ذبحوا أهل القرية يا مولاي"

التفت "راميرو" إلى الفارس الذي يجاوره:

"أيها الفارس "ريمونديس" خذ رجالك وانطلق مع هذا الرسول لتوقف تقدم هؤلاء البربر"

"أمرك يا مولاي"

انطلق الفارس "ريمونديس" يجمع جنده استعدادًا للانطلاق وجمع الملك "راميرو" فرسانه وجنده

"أيها الرجال لقد نزل مقاتلو الشمال

بأراضينا"

تعالت صيحات الرجال فاستطرد:

"لقد انطلق شطر كبير منا للقائهم ولم يبق هنا إلا نحن، لقد صار موقفنا عسيرًا، ونحتاج لحشد المزيد من الرجال، فقد تضاءلت قوتنا ولم تبدأ المعركة بعد، وهذا العدو الماكر قد نجح في تفريقنا، أيها الرجال إن اليوم يومكم، ومن سيغفل عن رأسه فلن يجدها"

* * *

وقف زعيم النورمان في مركبه بخوذته ذات القرنين، ومن حوله رجاله يراقب الشاطئ:

"مولاي لقد تصاعدت أعمدة الدخان على الشاطئ"

"أرى هذا ، لا بد أنهم أطفئوا بعض نيرانهم"

"إذًا فقد رحلوا"

"بعضهم فقط"

"لا بد أنهم ذهبوا لمحارية مراكبنا التي توغلت في أراضيهم"

"هل ذهب "هلفدين" ليدعم الرجال هناك؟"

"نعم يا مولاي، لقد رحل بالأمس ولا بد أنه معهم الآن"

"إني أرى "ثور" إله الرعد غاضبًا ، ولو لم ننه هذه الغزوة في أيام قليلة فسيحل بنا غضبه ويغرق مراكبنا"

"إذًا لا بد أن ننزل بالشاطئ"

"أو نرحل من هنا"

"هل تريد أن نرحل يا مولاي؟"

"كلا، ولكن "ثور" يعاقبنا على تخاذلنا أمام الساحل، لقد حملنا إلى هنا ونحن ننتظر"

"وإلى متى سننتظر؟"

"لقد انتهى انتظارنا، سننزل بهذه الأرض عند نزول الضباب"

"هل أخبر زعماء العشائر بذلك؟"

"نعم أخبرهم أن يستعدوا"

ثم وقف يخطب في رجاله:

"قبل أن يقبل "بالدير" إله الضوء وعندما يرسل إله الآلهة "أودين" الضباب سنحل بالشاطئ؛ لنملك هذه الأرض لنصير ملوكها، أو لنجاور الآلهة العظام وآباءنا الأبطال في جنة

"فاهالا""

زفع الرجال دروعهم وهم يهتفون في حماس:

"فاهالا .. فاهالا"

"الآن أيها الأبطال يا نسل الأبطال لنبدأ الاستعداد"

* * *

جلس الملك "راميرو" على عرشه يستقبل الكونتات الذين أقبلوا من كل أرجاء جليقية وأستروش والغضب بادٍ على وجهه:

"يجب أن تعلموا أن هؤلاء البربر قد نزلوا بضفة نهر منهو، وقد أرسل الكونت "جونزاليس" ليستغيث بي"

"إن رجالنا في خدمتك يا مولاي ولكن

جلالتك تعرف أن"

ونظر الكونت في خبث للملك فرد الملك غاضبًا:

"أعرف ماذا؟ لماذا لا ترتفعون فوق خلافاتكم معي؟ لماذا لا تهتمون بهذا العدو الذي يهدد وجودنا جميعًا؟"

رد شخص آخر:

"كل منا قادر على حماية وجوده"

"حقًا ولماذا استغاث "جونزاليس"؟"

"أنت تعرف أن "جونزاليس" دائمًا أضعف من أن يواجه أعداءه"

"وأنتم قادرون على مواجهتهم"

"لنا الفخر في ذلك"

"لنرى ماذا ستفعلون في مواجهة هذا العدو القابع بسواحلنا"

"مولاي الملك، هذا العدو قابع منذ ستة أيام ولم يفعل شيئًا"

"ألم ينزل بقرى نهر منهو؟"

"هذا لأنهم قرويون أما نحن فمقاتلون أبناء مقاتلين ننحدر من عظماء الروم"

- وارتفع صوت رجل يستغيث، واندفع الجندي ممزق الثياب والذي تلطخ وجهه بالدماء يحيط به جرس الملك:

"أدركنا يا مولاي لقد هاجمنا النورمان هذا الصباح"

"ماذا حدث؟"

"عندما حل الضباب انشق فجأة عن جحافل مـن المتوحـشين وفي أيـدي كـل مـنهم سـيف وفأس، وانهالوا على الرجال طعنًا وقتلاً"

"ألم يكن الرجال مستعدين؟"

"بلى يا مولاي، ولكن هذه الجحافل ظهرت فجأة بأعداد كبيرة كأنهم أمواج البحر"

"وماذا حدث؟"

"لقد تركت القتال بصعوبة حتى أستغيث بك"

"إذًا فالرجال ما زالوا صامدين"

"لقد كانوا كذلك حين تركتهم"

"كانوا!!"

"الهجوم شديد، وهؤلاء النورمان أشداء، ولا

أعرف كم يستطيع رجالنا الصمود"

"هل سمعتم أيها الكونتات؟"

نظر إليهم الملك في ازدراء:

"من سيكون منكم معي؟ يجب أن يعلن ذلك الآن وفورًا فليس هناك وقت للتفكير"

رفع الكونتات أيديهم الرجل تلو الآخر وهم ينظرون إلى بعضهم البعض:

"لقد اخترتم الاختيار السليم؛ فلنخرج للقاء هؤلاء البربر"

* * *

سار الملك "راميرو" بين أجساد القتلى والخيام المحترقة، ومن خلفه الجيش الذي نجح في حشده في خلال اليومين المنصرمين، ونظر

في حسرة إلى جنوده في محاولتهم مساعدة زملائهم المصابين بلا فائدة، ونزل من على فرسه واستوقف أحد الجنود:

"أين بقية الرجال؟"

"نحن كل من بقي يا مولاي"

"هل تمزح؟ ماذا حدث؟"

"لقد خرجوا علينا مع الضباب لم نكن نستطيع تلمس طريقنا، وكانوا ينتقلون في خفة كالشياطين لم نستطع حتى الفرار"

"وأين ذهبوا؟"

"إلى الجنوب"

بدا على الملك التفكير العميق، ثم بدا وكأنه يحدث نفسه، ثم ارتفعت همهماته

ليسمعها الجميع وهو يعتلي فرسه:

"ستلتحم قواتهم عند نهر منهو، ستلتحم قواتهم وتضاعف قوتهم"

"مولاي "راميرو" لقد وصل الفارس "غرسيه""

تقدم الفارس "غرسيه" في ثقة بفرسه المختال ومعه رجل غريب عن البلاد، وما إن اقترب من الملك حتى نزل عن فرسه هو ورفيقه وانحنيا للملك:

"فليبارك الرب مولاي "راميرو""

"مرحى يا "غرسيه" يبدو أنك نجحت"

"أقدم لك "لويس" فرنسي كان يعيش قرب نهر الجارون، وجاء إلى بلادنا من عشرة أعوام ويجيد الجرمانية لغة أهل الشمال"

التفت الملك إلى الفرنسي وأشار إليه أن يعتلي فرسه:

"أعرف أنك جئت من رحلة طويلة ومرهقة، ولكن الوقت لم يعد في صالحنا وأعدك بعد أن تنتهي هذه الحرب بجائزة كبرى"

"أنا في خدمة مولاي الملك دائمًا"

"أظن "غرسيه" أيضًا لن يتأخر وإن كان له العذر لو فعل"

قال "غرسيه" بنظرات زائغة وهو يعتلي صهوة جواده:

"وكيف أتأخر عن خدمة مليكي"

تحرك الرجال إلى الجنوب وفي أثناء السير التفت الملك إلى الفرنسي:

""لويس" حدثني عن غزو هؤلاء القوم لبلادكم"

"لقد كانوا ينسابون مع مجاري الأنهار فيقتلون أهل القرى وينهبونها"

"مجارى الأنهار؟"

"نعم، فهم مرتبطون بمراكبهم لا يبتعدون عنها كثيرًا؛ فهي طريقتهم للهرب عندما تدور عليهم الدوائر"

"وغنائمهم هل يتركونها؟"

"كلا بل يحملونها بصفة دائمة على مراكبهم"

"وهل تكفي مراكبهم لحمل كل هذه الغنائم؟"

"وما المشكلة في حمل بعض الذهب؟!!"

"الذهب!!"

"نعم الذهب، إنهم يبحثون عنه في جنون"

"الذهب"

وظل الملك يرددها وهو يسير في طريقة للقاء النورمان مقاتلي الشمال.

* * *

أشار الملك "راميرو" إلى جيشه بالتوقف:

"سننزل هنا"

توقف الجند وبدءوا في إعداد المعسكر حين اقترب أحد الفرسان مسرعًا فنادى أحد الجنود:

"مولاي لقد عاد الفارس "دياث""

وقف الملك ينتظر الفارس الذي نزل من على فرسه وركع أمام الملك

" فليبارك الرب مولاي "راميرو""

"هل نجا "ريموينديس"؟"

"أخشى يا مولاي، أن أخبرك أنه محاصر هو ومن بقي من رجاله في قلعة الكونت "جونزاليس" لقد أفنى هؤلاء البربر كل شيء في طريقهم"

"لقد رأيت ذلك في طريقي"

"وأين النورمان الآن؟"

"بيننا وبينهم مسيرة ساعة"

والتفت إلى رجاله:

"أين "غرسيه"؟"

"أنا هنا يا مولاي"

"أظن أنك تعرف بعضًا من لغة هؤلاء القوم"

"كلمات مفردة يا مولاي"

"خذ "لويس" واذهب إلى قائد هؤلاء القوم وأخبره أني أريد لقاءه"

"أمر مولاي"

والتفت إلى رجاله

"هل عاد الذين أرسلتهم إلى القلعة؟"

"لا بد أنهم في الطريق يا مولاي"

"ليذهب أحدكم لاستعجالهم فالوقت ليس في صالحنا"

* * *

تقدم الملك "راميرو" من قائد النورمان وإلى

جواره "لويس" الذي حدثه بصوت غير مسموع:

"ليغفر لي مولاي ما سأطلبه منه، يجب أن تنحني له"

كتم الملك "راميرو" غضبه:

"من حقه؛ فأنا من طلب لقاءه"

"أرجوك يا مولاي لا تريه غضبك هذا؛ فنحن بين أيديهم"

"بالطبع يا "لويس" ولكنه طالما وافق على اللقاء فلديه النية لأن يتحملنا لسبب قد نجهله"

ارتفع صوت قائد النورمان فأسرع لويس ليترجم:

"إنه يسألك لماذا طلبت لقاءه"

"جئت أطلب صداقتك، وقد أحضرت هدايا

من الذهب الخالص"

وحمل ما كان على ظهر فرسه ووضعه على الأرض أمام الملك الذي نظر إلى الحلي والأواني الذهبية بتعالٍ:

"كنا سنحصل عليها بشكل آخر دون الحاجة لصداقات جديدة"

"إن هذا الذهب مجرد هدية؛ لإثبات حسن نواياي فقط أما ثمار الصداقة فهي أكثر وأعظم"

"دعنا نعرف ما قد تحققه الصداقة لكلينا"

"فى البداية ليعرف قائد النورمان العظيم أنه بالقوة التي قد تسبب لي خسائر عظيمة ، بل تجعل مملكتي في أسوأ حالاتها ، ولكنها لن

تفني ملكي، وسيجد سيدي العظيم أن قوته تتآكل، وخاصة لو استعنت بجيراني العرب "

"هل تهددني بجيرانك؟"

"لم أقصد أبدًا ذلك، فأنا في حرب مستمرة معهم ولن نتفق أبدًا"

"إذًا ماذا تريد؟"

"أريد فقط أن أخبرك أن هذا النهر الذي خلفك لن يصلح للملاحة عندما تتقدم فيه قليلاً، وقتها إما أن تتخلى عن مصدر إمداداتك أو تتوقف وتظل في مواجهة مستمرة معنا، وأعدك أننا سنسترد هذه الأرض كما استرددناها من العرب"

"مازلت تهدد دون أن تتنبه، إنني لو أردت

سحقك الآن لفعلت، فأي صداقة هذه؟!"

"هذا ليس هدفي، فأنا أعلم مدى قوتكم، ولكنني كنت أعرض كيف سيخسر كلانا لو لم نصبح أصدقاء على عكس لو صرنا"

"أستطيع أن أتوقع أن الثمن الذي تطلبه لصداقتك هو رحيلنا، ولكن ما الذي تستطيع تقديمه لنا"

"أن أخبرك بمصدر هذا الذهب"

"وما هو؟"

"هل حظيت بصداقتكم؟"

"لو كنت صادقًا"

"إن مصدرها جيراننا العرب، غنمناها في حروبنا معهم، وعندهم الكثير منها"

"وكيف أصل إليهم؟"

"أبحر للجنوب فقط"

"وهل هذا يكفي كثمن لرحيلنا؟ إنك ترسلنا لحرب أعدائك"

"إن بلادهم واسعة مترامية الأطراف، ويسهل الاستيلاء على أجزاء منها"

"وتبقى أرضك آمنة"

"وتبقى أرضي خير معين لك كلما أردت النزول بها"

"وأنا وافقت على هذا"

عقدت المفاجأة لسان "راميرو" فلم يتوقع مثل هذا الرد.

"سنرحل، ولكن كأصدقاء لنا حق العون

عندما نعود"

"تأكد يا سيدي أنك لن تندم على هذا ،وستظل بلادنا وفية لك أبد الآبدين"

"تستطيع الرحيل"

خرج "راميرو" ومترجمه مسرعين في سعادة متناهية؛ فلم يخطر بباله أن تنتهي هذه الأزمة بهذه البساطة، والتفت أحد المحيطين بقائد النورمان:

"هل كنت جادًا يا سيدي فيما وعدته به؟"

"وهل ألفتني من المازحين من قبل؛ "هلفدين"؟

"لقد ظننت أنك تخدعهم"

"لا لم أخدعه"

"لماذا يا سيدي؟ إنهم الفريق الخاسر والطريق مفتوح أمامنا ، لقد اختبرت بأسهم وأكاد أجزم أنهم لن يصمدوا أمامنا"

"إن الإله "ثور" غاضب ولن تتحمل مراكبنا ثورته؛ لذا يجب أن نغادر بحرهم في أسرع وقت"

"نستطيع أن نخرج المراكب من البحر"

"وننشغل عنهم بالمراكب فيكرون علينا"

"إذًا لتذهب المراكب للجحيم ونصنع غيرها بعد النصر"

"وتتغلق دوننا السبل لو كروا علينا كرة واحدة"

"كلنا مستعد للحرب حتى الموت"

"ولماذا الموت طالما أن طريق النجاة مفتوح،

غير أن فكرة الذهاب لأرض الجنوب تستهويني"

"أشعر بعار الانسحاب"

"إن ما فعلت لتجنب عار الانسحاب، هكذا نخرج منتصرين بغنائمنا"

"ولكن يا سيدي"

"اسمع مني يا "هلفدين" لا تعرض نفسك أبدًا لإله غاضب"

ثم ربت على كتفه وقال في ود:

"هيا يا "هلفدين" قم واجعل العشائر تعد مراكبها للرحيل نحو الجنوب قبل أن يثور البحر"

* * *

"سيدي "ريمونديس" لقد رحل النورمان"

نهض "ريموندس" دفعة واحدة من فراشة ليخاطب الجندي الذي اقتحم الغرفة كالمخبول وهو يتخبط في الجدار فأمسك الجندي من كتفيه:

"هل أنت واثق من هذا؟"

"لقد رأيت مراكبهم من فوق البرج وهي تغادر نهر منهو"

"قد تكون خدعة حتى نخرج لهم"

"لقد ظننت ذلك في البداية حتى رأيت أعلام مولاي "راميرو""

"إذًا فقد انتصرنا على النورمان"

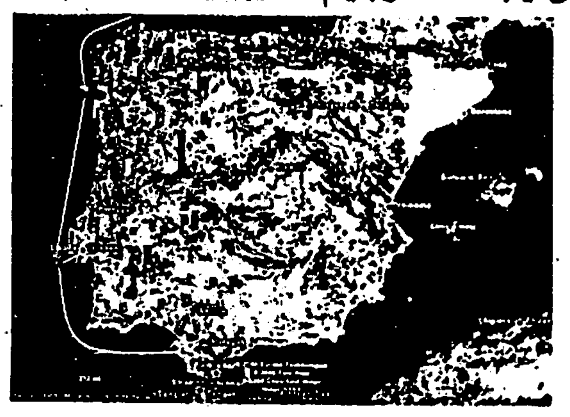
وصاح الفارس في نشوة:

"انتصرنا"

"انتصرنا يا سيدي"

"اذهب واستعد أنت وزملاؤك الأبطال لاستقبال جيش الملك المنتصر".

خرج الجندي وبدأ الفارس "ريموندس" يعدل من ثيابه؛ لقد مر بأيام عصيبة في هذا المكان.



«اسبانيا والبرتغال ومسار تقريبي لحملة الفايكنج الأولى»

* * *

أمام سواحل أشبونة

كانت عيون الحرس ترمق إحدى شرفات القلعة حيث انبعث ضوء خافت من مجلس وهب الله ابن حزم عامل الأمير عبد الرحمن بن الحكم على مدينة أشبونة مع كاتبه يراجع الدواوين والسجلات حتى اقترب موعد صلاة الفجر.

"لقد اقترب موعد صلاة الفجر يا سيدي"

"ونحن قد شارفنا على الانتهاء من ديوان الجند ولم يبق إلا القليل"

"سيدي أنا لم أنم منذ يوم كامل"

"تستطيع أن تذهب بعد الفجر لتنام قليلاً"

"قليلاً!"

"نعم فأنا أريدك في الصباح الباكر"

زاغت عينا الرجل:

"الصباح الباكر"

ابتسم وهب الله في ود:

"تستطيع أن تفعل ما تشاء غدًا، لقد كنت أمازحك"

"هل ستخلد للراحة غدًا يا أمير؟"

"أتعرف لماذا واصلنا العمل طوال الليل يا

عبدالله؟"

"لماذا يا أمير؟"

"لأنني غدًا في الصباح سأستقبل مبعوث الأمير عبدالرحمن، هل مازلت تظن أن هناك وقتًا للراحة؟"

"ولكن يا أمير إن لبدنك عليك حقًا"

"وماذا أفعل في حق هؤلاء المسلمين؟"

شرد عبدالله ببصره قليلاً ثم أطرق وقال:

"ننهي عملنا يا أمير"

واصل وهب الله ابتسامته الودودة على الرغم من تنبه حواسه مرة واحدة وإلقائه السمع:

"ها هو أذان الفجر يا فتى"

ضحك عبدالله حتى بدت نواجذه

"لقد أراحنا بها الله"

"اطلب من الخدم أن يعدو لنا الدواب"

"أمرك يا أمير"



"مدينة لشبونة الحديثة مع تحديد تقريبي لموقع القلعة والمسجد الجامع"

* * *

كان الناس قد فرغوا من صلاة الفجر في مسجد أشبونة الجامع عندما ظل هذا الرجل يتابع ابن حزم في اهتمام، وبمجرد أن ختم الأمير صلاته حتى أسرع ليجلس إلى جواره بشكل مريب فرمقه الأمير بنظرته الودودة.

"السلام عليكم يا أمير"

"وعليكم السلام، أشعر أن لك حاجة"

"هناك أمر أريد أن أخبرك به دون أن يسمع أحد"

"ألا تخبرني من انت أولاً"

"أنا رجل فقير أعمل صيادًا"

"دعنا نخرج ونتحدث في الطريق"

والتفت إلى كاتبه:

"هيا يا عبدالله"

وخرج الثلاثة من المسجد، وجذب الأمير وكاتبه دوابهم وسارا مع الرجل:

"الآن تستطيع أن تطلب حاجتك إن كان الحياء من الناس منعك في المسجد"

"أغنى الله الأمير فقد أغناني الله من فضله"

"إذًا ما الأمر الذي تريد أن تتحدث عنه؟"

"إنه أمر من الخوف خشيت أن أذيع به"

نظر إليه وهب الله في اهتمام:

"أمر من الخوف"

"عندما خرجت اليوم قبل الفجر لأعد لرحلة الصيد رأيت في البحر أمرًا أثار خوفي ولم أحبذ الحديث به أمام الناس"

"ماذا رأيت؟"

"رأيت مراكب كثيرة تملأ الأفق، لها مظهر غريب"

"لعلها مراكب صيد أو تجارة"

"لا يا أمير أنا صياد قضى حياته في البحر، اتظن انني لن أستطيع التمييز؟"

"لعل الظلمة حالت بينك وبين تمييزها؛ أنا لا أكذبك ولكن فقط أحاول أن أتفكر في روية"

"أستطيع فهم ذلك يا أمير، ولكن صدقني يا أمير، أنا لم أرَ مثلها من قبل"

"منذ متى وهي موجودة؟"

"أظنها جاءت بالأمس ليلاً"

"هيا يا عبدالله لنراها"

* * *

عندما تكون واقفًا فوق القلعة يسهل عليك أن ترى المدينة بأكملها: البيوت والطرقات، بل يمتد أفق رؤيتك حتى تستطيع رؤية البحر أمام ناظريك، وعندما ترى الشمس تخرج على كل هذا لتحمل معها الحياة تشعر بمتعة كبيرة، لذا كان يحب أن تكون نوبة حراسته دائمًا فوق القلعة؛ ليرى هذا الحسن ويراقب الحركة في الطرقات والمراكب والسفن بالبحر و..

"ما هذا؟"

لم يلاحظ من قبل مثل هذه المراكب، إن رؤيتها تثير الذعر، ونظر من حوله ليبحث عن

رفيقه:

"يا أحمد تعال أسرع"

"ماذا حدث؟"

"هل ترى هذه المراكب؟"

"أي مراكب؟"

"هذه ألا تلاحظها!! إنها تملأ البحر"

"ياللهول إن مثل هذه لا يأتي بخير"

"اذهب وأخبر القائد وسأتابعها أنا"

انطلق الحارس مسرعًا ليذهب إلى القائد ، ووقف زميله يعد هذه المراكب وهو يراقبهم في اهتمام:

"منذ متى وهذه هنا؟"

انتبه الحارس إلى قائد الحرس الذي وقف

الى جواره

"رأيتها مع شروق الشمس يا سيدي"

"وقد تكون موجودة قبل ذلك"

صمت قليلاً وهو ينظر باهتمام:

"هل استطعت عدها؟"

"لقد أحصيت أربعة وخمسين مركبًا ،

يتبعها أربعة وخمسون قاربًا"

"واصل متابعتهم وأخبرني لو جد جديد"

"أمرك يا سيدي"

وانصرف القائد مهتمًا ووقف الحارس يتابع

المراكب وكأنما قد استحال إلى صخرة في

القلعة.

* * *

وقف قائد الحرس على باب القلعة ليستقبل وهب الله بن حزم الذي ظهر يعتلي صهوة جواده وقد أقبل في سرعة لم يعهدوه بها من قبل، وعندما دخل إلى القلعة قفز من على فرسه والقلق بادٍ على وجهه:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير"

"ماذا حدث يا سالم؟ لماذا تنتظر هكذا؟"

"هناك خطر شديد يتهدد المدينة"

"المراكب الأربعة والخمسون وقواربها"

"توقعت أنك كنت تتبين الأمر، ولكن كيف عرفت يا أمير؟"

"أخبرني أحد الصيادين"

"إذاً فالمدينة كلها تعرف. إن هذا سيثير الذعر بين الناس"

"هذا ما يهمني، فعلى الرغم من حنكة الصياد في إخباري دون أن يثير ضجة إلا أنها واضحة للعيان، وفي خلال وقت قصير ستعرف المدينة كلها وتنتشر الفوضى انتشار النار في الهشيم"

"بماذا تأمر يا أمير؟"

"أريد قائد الجند والقاضي في أسرع وقت ممكن وأنت معهم"

"أمرك يا أمير"

"هل وصل مبعوث الأمير عبدالرحمن؟"

"لا لم يصل بعد"

"أخبر الحرس أن يدخلوه فور وصوله"

والتفت إلى كاتبه:

"تستطيع أن تذهب يا عبدالله"

"كيف أتركك يا أميرة".

"اذهب فهناك عمل شاق ينتظرك"

ونظر خلفه إلى قائد الحرس الذي كان قد ابتعد قليلاً:

"سالم من أين رأيت هذه المراكب؟"

عاد قائد الحرس مسرعًا:

"هناك من فوق القلعة هل أقودك إلى هناك؟"

"كلا قم بإنجاز ما طلبته منك، ألا يعلم الحرس بالأمر؟"

"كلهم على دراية بالأمر"

"السلام عليكم"

ولم ينتظر الإجابة وارتقى درجات السلم مسرعًا ومن خلفه عبدالله:

"ماذا هنالك يا عبدالله؟"

"لن أستطيع أن أتركك يا أمير"

"إذًا ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً"

* * *

كان القلق يخيم على مجلس الأمير ابن حزم، وقد اجتمع معه قائد الجند وقائد الحرس وقاضي المدينة، وجلس إلى جوار الأمير كاتبه الذي انشغل بمقاومة النعاس الذي كان يغزو عينيه في شراسة:

"لقد انتشر الخبر بين الناس"

"هــذه أول مــشكلة تواجهنــا بالإضــافة لمشكلة حشد العدد الكافي من الجند"

"وهناك مشكلة أخرى يا أمير"

"ما هي يا قائد الجند؟"

"متابعة تحركـات هـذا العـدو حتـى نكـون مستعدين لأي هجوم"

أومأ ابن حزم برأسه موافقاً:

"يبقـى أن نعـرف كيـف نتعامـل مـع هــذه المشاكل"

نظر قائد الجند في ثقة:

"دع لي المشكلة الأولى"

"ماذا ستفعل؟"

"سأخرج بطوابير الجند في استعراض يراه كل سكان المدينة ليعلم الجميع أننا في أتم الاستعداد"

"ومشكلة حشد الجند"

رد القاضي بابتسامة هادئة:

"دع لي هذا الأمر يا أمير فقد حان وقت الأذان للجهاد في المسجد الجامع"

"وأنا سأرسل إلى الأمير عبدالرحمن ليبعث لنا الدعم"

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

التفت الجميع إلى صاحب الصوت الذي دخل بوجه بشوش إلى المجلس :

"وعليكم السلام، وهاهو رسول أمير

الأندلس قد وصل"

"أشعر أن هناك خطبًا خلف قولك هذا يا أمير"

"اجلس أولاً يا أخي"

"طالما الأمر بدأ هكذا فقد صدق حدسي، فمنذ دخلت المدينة وهناك أمر غير مريح"

"مراكب الأعداء بالساحل"

"الجلالقة"

"لا أظن؛ فهذه المراكب لها شكل غير مألوف بهذا الرأس الذي يتقدمها"

اشترك قائد الجند في الحديث:

"إن الجلالقة لا يملكون حشد مثل هذه المراكب"

"إذًا من هم؟"

"حتى هذه اللحظة لا نعرف"

هنا تكلم قائد الحرس:

"اتركوا هذا لي لن أترك شاردة أو واردة عنهم تفوتنا بل سأحصي عليهم أنفاسهم"

"إذًا توكلنا على الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل"

غادر الرجال القاعة كل إلى ما وعد به، وتركوا ابن حزم في صحبة كاتبه ورسول أمير الأندلس.

"لابد أن وقت وصولي لم يكن مناسبًا"

"على العكس يا أخي لقد جئت في وقتك تمامًا"

"انا لا أظن أن السجلات التي طلبها الأمير جاهزة"

"على العكس يا أخي لقد أعددنا كل ما امر به أمير الأندلس"

"لا ادري هل من المناسب أن أطلب اصطحابها إلى الأمير لأستأذن منه في الجهاد الى جواركم"

"بل دوركم أعظم من ذلك"

"ماذا تقصد؟"

"سأعد كتابًا إلى الأمير أرفقه بالسجلات التي ستحملها إليه بشأن العدو ومراكبه وحاجتنا إلى المدد"

"لك هذا يا أمير":

"إن أفضل ما تقدمه لنا أن يصل هذا الكتاب إلى الأمير في أسرع وقت"

"سأحمله من فوري وأعود إلى قرطبة"

"هذا عهدنا بك دائمًا"

والتفت إلى كاتبه ليجده قد استسلم للنعاس إلى جواره

"المسكين إنه يومه الثاني على التوالي بدون نوم"

ابتسم رسول قرطبة:

"إن هذا باد عليه"

"سأصطحبك الآن لترى المراكب حتى تكون على بينة من الأمر عندما يسألك الأمير"

ثم نظر إلى كاتبه في شفقة:

"لعله يكون قد استيقظ عند عودتنا"

وخرج الرجلان من القاعة ونظر الأمير إلى الحارسين بالباب:

"لا تجعلوا أحدًا يزعج الرجل بالداخل حتى أعود"

فغر الحارس فاه دون فهم ثم قال لزميله:

"ألا ينام هذا الرجل أبدًا؟!"

* * *

على الرغم من أن الشمس كانت قد شارفت على المغيب إلا أن تزاحم الناس على الحوانيت كان في زيادة مستمرة، ووقف رجلان من أهل المدينة يتسامران في انتظار أن يستطيعا الوصول إلى البائع لشراء ما يحتاجانه

من سلع.

"لقد تضاعفت الأسعار"

"أمر متوقع فكل أهل المدينة يقوم بتخزين ما يكفيه لحصار طويل"

"هل تظن حقًا أن هذه المراكب قد جاءت لحربنا؟"

"بل للعب النرد معنا"

"هل تمزح؟"

"أنت الذي يمزح، مراكب مملوءة بالرجال تقف بسواحلنا لماذا جاءت إذًا؟!!"

"لعلها جاءت للصيد"

"من أمام سواحلنا!!"

"يقولون: إن هيئة المراكب غريبة"

"لقد رأيتها ، إن بها رجالاً عمالقة جاءوا من بحر الظلمات"

"هل تخدعني؟ أنت معي هنا منذ طلوع الشمس لم تذهب إلى أي مكان لتراها"

"لقد رأيتها قبل أن آتي إلى هنا"

"هل نسيت يا هذا!! أنا الذي أخبرتك بشأنها عندما كنت ذاهبًا إلى عملك"

"حقًا! إذًا من أخبرني بأمر العمالقة؟"

"انظر إنه ابن عمك يجري هناك إلى أين هو ذاهب"

توقف الرجل عندما سمع نداء الرجلين عليه:

"ماذا تريدان؟"

"لماذا تجري هكذا؟ هل هاجم الأعداء

المدينة؟"

"بل لقد أذن للجهاد في المسجد الجامع وأريد أن ألحق بهم"

"وأين جند المدينة أم أنهم يأخذون أجورًا دون فائدة؟"

"هل أنتما نائمان؟!"

"بل نحن هنا منذ الصباح ولم نسمع شيئًا بشأنهم"

"لقد خرج الجند في كل أرجاء المدينة لينتقلوا إلى أماكن القتال، لم أعلم قبل الآن أن عندنا كل هذا العدد من الجند"

"إذًا لماذا يريدون حشد الناس للجهاد؟"

"ألا تريد شرف الجهاد والشهادة؟"

"أريد ولكن أولاً .."

"هاهم جنود أشبونة قادمون إنه لشيء مخزٍ أن أضيع وقتي مع متحذلقين مثلكما"

وانطلق وتركهما خلفه يتابعان طوابير الجند التي ملأت الطرق، وأخذ الناس يفسحون لهم الطريق وقد أخذهم الحماس:

"الله أكبر .. الله أكبر"

ارتفعت الأصوات بالتكبير حتى طغت على كل الأحاديث الجانبية، ولم يسمع أحد الحديث الذي دار بين الجنديين:

"لقد تعبت قدمي من التجوال في كل المدينة، لماذا يفعل القائد هكذا؟"

"أطع الأمر فقط"

"أنـا اتـساءل لـماذا لم نـذهب مباشـرةً لأرض المعركـة بـدلاً مـن إهـدار طاقاتنـا في أمـر كهذا؟"

"على العكس، أنا كلما سمعت تكبير الناس ورأيت فرحتهم بنا ازددت حماسًا"

"إنها وجهات نظر"

"يبقى أن تنفذ ما تؤمر به فقط"

وضاع صوتهم في غمار الزحام والتكبير.

* * *

تحـرك ركـب رسـول أمـير الأنـدلس ليغـادر القلعة تاركًا خلفه وهب الله بن حزم وكاتبه:

"ألم يكـن من الأنسب أن ننتظر للصباح يا أمير بدلاً من الرحيل في الليل؟!"

"وهل سينتظر العدو؟"

أطرق عبدالله في صمت ثم تساءل من جديد:

"ألن تنام قليلاً يا أمير؟"

"ليس قبل أن أطمئن ماذا فعل قائد الجند"

"لقد سمعت الحرس يتهامسون عن أخبار جنده الذين ملئوا المدينة، من أين أتى بكل هؤلاء الجند؟!"

رد وهب الله في شرود:

"ماذا؟"

"لقد راجعنا دواوين الجند، ولا أذكر أنني رأيت بها كل هذا العدد الذي يتحاكى به الناس"

"تقول: سمعت من الحرس؟"

"نعم سمعت منهم.."

قاطعه الأمير:

"إذن الحرس على دراية بما يدور في المدينة"

"الأخبار تتناقل بسرعة وتصل إليهم في أماكنهم"

"يا حارس"

نظر عبدالله في عجب إلى الأمير الذي تجاهله مرة واحدة واتجه للحارس:

"أمر سيدي"

"هل سمعت شيئًا عن أخبار الناس خارج القلعة؟"

"نعم يا سيدي"

"عبدالله استبدل هذا الحارس بآخر"

وتوجه بالكلام إلى الحارس:

"تعال معي"

"هل أخطأت في شيء يا سيدي"

"لا لا، فقط أريدك أن تخبرني ماذا سمعت"

"إن الناس تحكي أشياء أشبه بالخيال عن العدو الذي لا يعرف كنهه أحد"

سار الحارس مع وهب الله وهما يتحدثان:

"إذاً فالناس خائفة"

"كانوا في البداية خائفين ولكن عندما عرفوا مدى كثرة جند المدينة بدأت الطمأنينة تعود للمدينة"

"وكيف عرفت أن الطمأنينة بدأت تعود؟"

"كان أحد رفاقنا يريد شراء ثوب جديد وكلما ذهب إلى الباعة وجد الحوانيت مغلقة وأخيرًا وجد الباعة قد عادوا لعملهم"

"هل كانت الحوانيت مغلقة؟"

"لقد توقف كل الناس عن أعمالهم وانشغلوا بشراء الأقوات استعدادًا للحصار"

"هكذا ستنفد الأقوات من الأسواق"

"لهذا ارتفعت الأسعار"

"الأسعار، كيف نسيت ذلك؟"

وصل وهب الله بن حزم إلى مجلسه فالتفت إلى الحارسين بالباب:

"من يأتي أدخلاه فورًا"

"أمر سيدي"

"أما أنت هل تعرف عاملنا على خزائن الأقوات؟"

"نعم يا سيدي"

"اذهب إليه لتدعوه إلى مجلسي بلا تأخير، وأخبره أنني لن أقبل أعذارًا"

* * *

وقف قائد الجند مع أمراء جنده عند مصب نهر التاجه في البحر الكبير ووقف إلى جواره أحد رجاله:

"هل لي أن أسأل يا سيدي لماذا لم نتحصن بالمدينة وجئنا إلى هنا؟"

"هل تظن أن هؤلاء لن تغريهم القرى البسيطة على ضفاف النهر بنهبها؟"

"ولكنهم بهذا الشكل يستطيعون حصارنا في الظلام"

"أصبت"

"ماذا يا سيدي؟!!"

"ما تقوله صحيح"

"هل تريدهم أن يحيطوا بنا يا سيدي؟"

"كلا لا أقصد هذا ، ولكن أقصد قولك بشأن حصارنا في الظلام"

"وماذا سنفعل؟"

"يجب أن يظنوا أننا ألوف مؤلفة تحتشد على الشاطئ"

"وكيف ذلك؟"

"أريد من الجنود أن يشعلوا نيرانًا كثيرة

على امتداد الشاطئ"

"نيران كثيرة!! إن النيران سترشدهم لأماكننا"

"وهذا ما أريده، أن يرونا، ولكن أريدهم أن يروا كثرة نيراننا فيتوهموا كثرة عددنا"

ونظر من حوله ليرى الظلمة وقد بدأت تغطي ما حوله:

"ثم إن النار ستجعلنا نراهم لو حاولوا الهجوم علينا"

"ولكن نيران كثيرة كهذه تستلزم مجهودًا كبيرًا لإبقائها مشتعلة طوال الليل"

"فلتقسم الجنود إلى مجموعات تتناوب ذلك طوال الليل"

"ولكن الجنود منهكون تمامًا من السير في المدينة طوال النهار"

"لن أستطيع أن أقول لك سوى اجعلني في أحد هذه المجموعات"

* * *

فى حين انشغل الرجال المجتمعون في مجلس وهب الله بن حزم بأحاديثهم الجانبية جذب انتباههم دخوله عليهم

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير"

"أعلم أن كلكم لم ينل قسطًا كافيًا من النوم"

"جعلنا الله فداءك يا أمير، نحن نقدر المسئولية الملقاة على أعناقنا"

"وأنتم لها يا شيخ شعيب"

"لقد كنت أريد أن أخبرك أنني بمساعدة علماء أشبونة حشدت ألفًا من أهل المدينة للجهاد"

"نعم القاضي ونعم العلماء"

"إنهم مجتمعون في ساحة المسجد الجامع ينتظرون أمر الأمير"

"أما هذه فاتركها إلى قائد الجند، فلقد علمت من براعته بالأمس ما أثلج صدورنا"

"جزى الله الأمير خير الجزاء على هذا الإطراء"

"حقًا ما الذي يدور في رأسك بشأن المجاهدين؟"

"أرى يا أمير أن يبقوا في المدينة للدفاع عنها لو أصابنا أمر كتبه الله لنا خارج المدينة"

"هل هناك أخبار عن العدو يا سالم؟"

"لقد وصل المزيد منهم حتى صاروا ثمانين مركبًا ، ومع تحركاتهم العجيبة ظننا أنهم سيرحلون وتتفرج الغمة فوجدناهم يتحركون بصورة لم نفهمها"

تدخل قائد الجند في الحديث:

"هذا يعني أنهم يستعدون لهجوم، وإعادة ترتيب قواتهم تعني أنهم انخدعوا بنيران الأمس التي أشعلتها ، أريد منك يا سالم وصفًا

لتوزيعهم بالأمس ووصفًا لتوزيعهم اليوم"

"هذا جيد يستطيع كلاكما أن يرتب الأمر مع الآخر"

"أمرك يا أمير"

"وما أخبار الأسواق الآن؟"

أدرك أمين خزائن الأقوات أنه المقصود بالحديث

"لقد أخرجت كما أمرت يا أمير ما طلبت مني من الأقوات، ولابد أن الناس خرجوا الآن للأسواق ووجدوها"

"هذا سيبث الطمأنينة في قلوب الناس، وسيعيد الأسعار إلى نصابها"

"إن شاء الله يا أمير ولكن هذا سيخفض

مخزوننا من الأقوات كثيرًا"

"لا تقلق فلو كشف الله الغمة فستكون هذه الأقوات مخزونة في بيوت الناس، ولو أرادنا الله بأمر فلن يفيدنا خزن الأقوات"

"سدد الله رأيك يا أمير"

"يبقى أنني أريد أن أعرف المزيد عن هؤلاء؛ فأنا لا يريحني مقاتلة عدو لا أعرفه"

تفكر قائد الحرس قليلاً:

"سيكون عندك المزيد عنهم إن شاء الله في أقرب وقت"

* * *

الخدعة

كانت الشمس توشك على المغيب عندما وصل قائد الجند إلى المكان الذي يعسكر فيه رجاله على الشاطئ في صحبة قائد الحرس وآخر لم يكن معروفًا للجنود، ودخل خيمته دون أن يخاطب أحدًا، وكشف الغطاء عن

رقعة مرفوعة على نضد، وأمسك بقطع حجارة موضوعة إلى جوار النضد ونظر إلى قائد الحرس:

"التي أمامنا الآن أرض المعركة، وهذا الخط يمثل شاطئ البحر، وهذا هو سور المدينة"

ثم أخذ يرتب قطع الحجارة على الرقعة:

"وهذه هي مراكب العدو القابع بالبحر أليس لها هذا الترتيب؟"

"تقريبًا"

"معنى ذلك أنهم أرادوا النزول بهذا المكان في البداية، ولكننا أشعلنا فيه نارًا كثيفة فأعطتهم انطباعًا بكثافة الجند فيه"

امتدت يد قائد الحرس ليغير ترتيب القطع الحجرية:

"ولو غيرنا ترتيب المراكب هكذا؟"

"هذا يشير إلى هذا المكان بعيدًا عن نيراننا"

"إن هذا على فرض أنهم يفكرون بنفس الطريقة"

"ألم يكن لهم هذا الترتيب في الصباح؟"

"بلي"

"إذًا لماذا لم يقوموا بالهجوم؟"

"هذا هو السؤال الذي يدور في ذهني بل يجعلني أتشكك في فرضيتك"

"على العكس هذا يؤكد فرضيتي؛ فهؤلاء الرجال يراقبوننا كما نراقبهم، وعندهم شك

في أننا نراقبهم، وتغييرنا لأماكن النار سواء كانت النار خدعة أم جندًا كثيفًا سيؤكد لهم أننا نراقبهم"

"إذًا لن تغير توزيع النار؟"

"تقريبًا"

"تريد أن تجهز لهم فخًّا؟"

"وقتها لن تستطيع توقع ضربتهم الحقيقية"

"ماذا تريد بالضبط؟"

"أريد أن أفكر مثلهم وهذا يقتضي أن نعرفهم أكثر"

"تريد أن تغير توزيع النار لتختبر رد فعلهم؟"

"وقتها سيأخذون حذرهم"

"لم أعد أفهمك"

"انصتا جيدًا سأخبركما بما أفكر فيه"

والتفت إلى رفيقهم الثالث:

"انتبه جيدًا يا رشيد؛ فدورك هام لأقصى حد"

وابتسم رشيد الذي لم ينطق منذ وصولهم.

* * *

مع اقتراب بزوغ الفجر غطى الضباب مساحة واسعة من الساحل، ومع مهاجمة البرد لأوصال الجنديين الواقفين أمام أرض أحد القرويين المواجهة القريبة من الساحل بدأ القلق يتسلل إلى نفوسهم:

"أنا لا أستطيع فهم القائد"

"إن الأمر محير حقًا"

"هل يخبرنا أننا سنتعرض للهجوم؟!!"

"لعله فقط يحمسنا حتى نبقى متيقظين"

"هل تظن ذلك؟"

"بالتأكيد وإلا كان حشد الجند هنا"

"أو على الأقل لأبعد هذا القروي"

"لربما تركنا لحمايته؟"

"هل أصابك الخبل؟ إنه هو الذي قرر البقاء رغمًا عن إرادة القائد؛ إن حمله قسرًا أسهل"

"دعنا نفكر بهدوء هل تذكر أوامر القائد؟"

"لقد حذرنا في البداية من هجوم متوقع هنا ثم قال: إنه في هذه الحالة ستنحصر مهمتنا في إنقاذ الرجل"

"هل تذكر آخر كلماته؟"

"بالطبع لقد قال: لا أريد أبطالاً موتى، لو اشتد القتال لا يجب أن تأخذكم الحمية، وفكروا في النجاة مع القروي الذي يسكن في هذا البيت"

"مازلت لا أفهم، إنها دعوة صريحة للتراجع أمام الهجوم"

"أنا أراها محاولة لحفظ حياة هذا الرجل العنيد"

"لا زلت قلقاً"

"صه"

وأطرق الرجلان السمع:

"ما هذا الصوت؟"

"هناك شخص قادم"

وانشق الضباب عن رجل أشقر الشعر يحمل في إحدى يديه سيف والأخرى فأسًا ليهوى به على رأس الأول الذي تحرك في خفة؛ فاختل توازن الرجل فهوى الثاني عليه بسيفه:

"الله أكبر"

"النيران"

"لقد أشعلوا النار في كل مكان"

"يبدو أنهم كثيرون"

"كم من فئة قليلة"

"لا تأخذك الحمية؛ تذكر أمر القائد"

"إنها الشهادة"

"هذا الرجل يحتاج إلى الحماية؛ أسرع يا

أخي لننفذ أمر القائد"

وجذبه من يديه وانطلقا إلى بيت القروي لإنقاذه فوجدا ثلاثة من زملائهم يتقاتلون مع ثلاثة من المهاجمين فانضموا إليهم، وإذا بصاحب البيت وقد حمل سيفًا وهو يحاول أن يشاركهم فجذبه الرجلان وجريا بعيدًا ، وهما يسألانه:

"هل هناك أحد بالدار؟"

"لقد رحلوا جميعًا مع القائد"

"أسرع لنبتعد عن هنا"

"وأترك أرضي تحترق"

"إنه أمر القائد"

وظهر خمسة من الفرسان:

"لقد جاء المدد"

وصل الفرسان إلى الرجال فقال أميرهم:

"هل بقي أحد هناك"

"ثلاثة جنود يا سيدي"

التفت أمير الفرسان إلى رجاله:

"أنتمـا احملـوهم إلى المعـسكر، وأنتمـا أسرعا عسى أن نعين إخواننا"

انطلق الفرسان في اتجاه الأرض المشتعلة:

"هاهم هناك"

"أسـرعوا فأحـدهم ملقـى علـى الأرض، والآخران يبدو عليهما الإصابة"

"الله أكبر"

"الله أكبر"

التفت المهاجمون الذين زاد عددهم إلى الخمسة رجال حول الرجلين اللذين احتمى كل منهما بظهر الآخر إلى صيحات الله أكبر العالية؛ فأتاح لأحد الجنود قتل أحدهم ليزداد عدد القتلى إلى ثلاثة، فصاحوا صيحة عالية وانطلقوا في اتجاه الفرسان، ورفع أحدهم فأسه ليضرب أحدهم فعاجله الفارس الثاني بسيفه، وأطاح برأسه عندما ضرب مهاجم آخر فرس الثالث بفأسه؛ فقفز الفرس قفزة أطاحت بالفارس من فوق ظهره وسقط أرضًا، ودار حول نفسه متفاديًا ضربة من آخر، وانتصب واقفًا وهو يلتقط سيفًا من على الأرض، ومال في خفة ليقسم مهاجمه إلى نصفين قبل أن يعاجله بضربة ثانية، في حين كان الفارس

الأول يجهز على المهاجم الثالث، ونجح الجنديان في الإجهاز على الرابع، وحملوا زميلهم أمام الفارس الثاني، وقفز أحدهم خلفه، وأعان الفارس الثاني الجندي على أن يقفز على فرس الأول، وأصابه خنجر في ظهره.

"ياللهول إنهم قادمون"

مد الفارس الأول يده في سرعة، وأمسك بالفارس الثالث من نطاقه قبل أن يسقط على الأرض، وانطلق الفارسان قبل أن يصل بقية المهاجمين

"أسرع إنهم بارعون"

وابتعدوا وهم يحاولون تفادي خناجر القوم من خلفهم، تاركين المهاجمين الغاضبين تأكلهم نيران الغضب ونيرانهم تأكل الأرض،

ومسح الثاني على رقبة فرسه وهو يستحثه على الجري في سرعة:

"ها نحن قد وصلنا إلى معسكرنا"

خرج الرجال لاستقبالهم وتلقوا الفارس المصاب من يد الفارس الأول، وحملوا الجندي المصاب من على الفرس.

"لقد لفظ أنفاسه الأخيرة"

رد الفارس الأول:

"إنا لله وإنا إليه راجعون"

ثم نادى بصوت مرتفع:

"أبلغوا القائد واطلبوا من الجميع الاستعداد"

* * *

دار القائد بعينيه في أرجاء المكان الذي

جعله المهاجمون يبابا، ومن حوله أمراء جنده، وأحدهم يصف له ما حدث ثم سأله في حيرة:

"هل كنت تعلم يا سيدي بأمر هذا الهجوم؟"

"لماذا تسأل؟"

"طريقتك في الحديث، أوامرك بالأمس، كل شيء يعطي انطباعًا بذلك"

"كان تكهنًا فحسب"

ازدادت حيرة الرجل:

"ولماذا لم ننتظرهم لنوقع بهم؟"

"وما الذي حدث إذًا؟ ألم تنتظروهم؟ ألم أضع لكم خطة للقائهم؟"

"لقد كانت خطة فرار"

"وهذا ما أريده، ألم تكن خطة فرار

ممتازة؟"

"لا أفهم يا سيدي هل كنت تريد منا الفرار بدلاً من أن نعد لهم فخًا لنوقع بهم"

"هذا هو الفخ"

"هل لي أن أطلب مزيدًا من التوضيح؟"

"إن هجومهم كان بمثابة اختبار لقدراتنا ومدى رصدنا لتحركاتهم"

"إذًا لماذا لم توضح لنا ذلك؟"

"حتى يكون رد فعلكم غير مفتعل"

"لذا كان يجب أن ننخدع للنهاية"

"أصبت وذلك سيعيننا أن نرتب لهم فخًا حقيقيًا"

وظهر ركب قائد الحرس قادم إلى حيث

يقفون.

"هاهو قائد الحرس، وهم يرصدون كل تحركات المراكب من فوق القلعة، تستطيع أن تعرف منه عدد المراكب المهاجمة"

ثم التفت إليه وسأله:

"حاول أن تتوقع عدد المهاجمين"

"كانوا كثيرين"

"كم مثلاً؟"

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبًا يا سالم؛ إن رجالي يريدون أن يعرفوا عدد المهاجمين الذين هاجموا المكان"

"حمولة قاربين"

"خمسة عشر رجلاً مثلاً؟"

"لا يزيدون عن ذلك"

ابتسم ابتسامة عريضة:

"دعنا نعرف آخر ما عندك يا سالم"

وارتفع صوت أحد الجنود:

"لقد أمسكنا بهذا المتسلل يخرج من الماء يا أمير"

التفت قائد الجند إلى المتسلل وازداد حبور وجهه عندما رأى الرجل المبلل في يد الجنود:

"مرحبًا يا رشيد يبدو عليك التوفيق"

* * *

تدثر رشيد بثياب ثقيلة وجلس إلى جوار النار ليحكي ما حدث:

"بالأمس عندما كنت جالسًا وسط المتطوعين للجهاد، وجاء من يسأل عمن يجيد السباحة والغطس لم أكن أتوقع تلك المهمة، وعندما عرفتها شعرت بمزيج من الرهبة والحماس، وعندما وقفت على شاطئ النهر في ظلمة الليل في المكان الذي حدده لي القائد وقفزت في الماء، ولأول مرة أخاف البحر وأشعر أنني قد لا أعود، أو لعلها الظلمة بما تضفيه على النفوس من رهبة، وضربت الماء البارد بذراعي حتى كاد عزمي أن يخور، وتساءلت ما الذي دفعني لهذا؟ وشعرت بحركة الماء فتوقفت، وأمعنت النظر فإذا بقاربين فسكنت حتى لا يكتشفوا وجودي، واستعنت بستار الظلام، وأدركت سر اختيار القائد لهذا

الموعد، وتذكرت كلماته أن في هذا الوقت يكون الظلام خير معين، وتذكرت أيضًا كلمات له دفعتني للتقدم فقد قال: إن هناك أناسًا قد يموتون في الصباح حتى تستطيع إكمال مهمتك؛ فانشغالهم في القتال سيسهل حركتك أنا لم أنس قوله: إن نجاحك سيحقق لنا تفوقًا كبيرًا، وازدادت حماستي وواصلت السباحة إلى أن وصلت مع ظهور أول ضوء، ورأيت مراكبهم، كانت عظيمة الطول، قليلة العرض، لها مقدمة تشبه رأس حيوان لم أعرفه، ممتلئة بالرجال أحصيت منهم أربعين في مركب واحدة، لهم بشرة بيضاء، ويغلب على معظمهم الشعر الأشقر، يجلسون في صفين للتجديف، وعلى كل مركب رجل

يبدو أنه أميرها ، وهناك مركب بدت أنها لزعيمهم لأن بها رجلاً يضع على رأسه خوذة ذات قرنين كان ينظر إلى المشرق وهو رافع يديه، وهم يرددون خلفه ما يقول كأنهم يصلون"

نظر قائد الحرس وقائد الجند كل إلى الآخر:

"هل تعرف من يصلي إلى المشرق عند شروق الشمس؟"

"المجوس"

"رباه هل هؤلاء مجوس؟"

"اكمل يا رجل"

"كانوا رجالاً أشداء يعرف من يراهم أنهم

رجال ألفوا البحر، وصاروا جزءًا منه، والغريب أن مراكبهم البسيطة يعرف الخبير أنها قادرة على شق عالي الموج، وعم الضوء المكان فخشيت أن يكتشفوا وجودي، فاستفدت من انشغالهم بترقب زملائهم الذي رصدته في متابعتهم الدخان المنبعث من الحرائق، واختفيت تحت سطح الماء وابتعدت عنهم بمسافة مناسبة ثم سبحت للشاطئ لأجد الجند في انتظاري؛ فقد ظنوا أني متسلل فأمسكوا بي وقادوني إليكم"

"جهد محمود يا فتى"

"نفسي فداء للإسلام"

ومد قائد الجند يده إلى قطع الحجارة على

رقعته:

"لو فرضنا أن اللعبة استمرت بنفس القواعد فنحن سنقوم بإشعال النيران هنا وهنا ونبدأ في إخماد بعضها هنا وهنا"

"وهذا يعني أنك نقلت قواتك من هذه المناطق إلى هذه"

"هذا سليم، وبهذا ينتقل إليهم أن هذه المنطقة آمنة حيث سننتظرهم"

"ولكن قتالهم سيكون خطيرًا؛ فعددهم على ما ذكر رشيد يتخطى الثلاثة آلاف، وجنودك لا يتجاوزون الخمسمائة"

"وألف من المجاهدين"

"لا يزال عددهم ضعفنا"

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦]

"ولكن المجاهدين ليسوا أكفاء له"

"سيكونون خط الدفاع الأخير لنا"

"لا أملك إلا أن أقول: أعانك الله وثبت أقدامك"

"لن أكرر ثانية: إن موقعكم من فوق القلعة يجعلكم أقدر على رصد حركتهم منا، ونحن في حاجة شديدة لمعرفتها باستمرار"

"سأذهب الآن لأخبر الأمير وهب الله بهذه التطورات، وسأوافيك دومًا بكل تحركاتهم"

* * *

وقف زعيم النورمان يراقب رؤساء العشائر

في ضوء القمر الخافت وهم يقتربون بقواربهم من مركبه حتى اجتمعوا إليه ثم بادره أحدهم بالكلام:

"سيدي لقد انقضى اليوم الرابع لنا دون أن نقوم بهجوم حقيقي على هذه الأرض"

"دائمًا ما تتعجل يا هلفدين، هل رأيت هذه الأسوار العالية التي تحيط المدينة؟ هل تلمح هذه القلعة العالية التي تطل علينا؟"

"ماذا تقصد يا سيدي؟"

"إنهم ليسوا مجموعة من القرويين سنهاجمهم ونحرق أراضيهم، إن من له مثل هذه الأسوار لقادر على حمايتها؛ لذا يجب أن نتروى ونفكر جيدًا"

"وهل يستغرق الأمر اربعة أيام من التفكير؟"

"من التفكير والاختبار هلفدين"

ونظر إليه معنفًا في صرامة واستطرد:

"أنا لن أقول لك إنني أظن أنهم يراقبوننا من هذه القلعة العالية، بل سأقول لك أنا موقن من ذلك، ولكن ما يهمني هو قدرتهم على فهم تحركاتنا من عدمه، لأجل هذا أغير من ترتيب مراكبنا دون حاجة حقيقية إلا أن أعرف كيف سيستجيبون لهذه التغييرات"

"وكيف وهل هنالك استجابة؟"

"انظر إلى توزيع نيرانهم الليلة، هناك استجابة منطقية لهجوم اليوم وليست لحركة

مراكبنا، وهذا ينقل لنا أمر من اثنين إما أنهم غير قادرين على استنباط حركاتنا؛ وهذا ييسر لنا اختيار المكان المناسب للهجوم، وإما أنهم بارعون ويحاولون خداعنا وعندها سنجد فخًا ينتظرنا أينما نزلنا"

"هل تعني أن توزيع نيرانهم قد يكون خدعة؟"

"هذا أمر وارد وذو احتمالية كبيرة"

"إذًا لماذا لم تتركنا نمسك بمتسللهم الذي رأيناه صباحًا في الماء لعلنا كنا عرفنا منه توزيعهم"

""وانوار" هل أصابتك عدوى الحماقة هذا الصباح؟! إن هذا الرجل كانت الجدوى

الوحيدة منه هي تركه فهو لا يفهم لغتنا"

"لا أفهم"

"عندما كنا نصلى لبالدير إله الضوء، سمعت أحد الرجال يحذرني منه فلمحته بطرف عيني، ولما كنت أتوقع منهم أمرًا كهذا قلت لهم لا تلتفتوا إليه، واتركوه لي لأقتله بنفسي فظل ينظر بسذاجة مما يدل على عدم فهمه للغتنا"

"هل كنت تتوقع منهم ذلك؟"

"أمر طبيعي أن يسعى الخصم لمعرفة قدرات خصمه"

"وتركته ليخبرهم بعددنا"

"حتى نثير ذعرهم وقد تحقق لنا ذلك

"لودبروك" لقد ازدادت نيرانهم"

"ألم تقل إن نيرانهم قد تكون خدعة، كيف إذًا نعتمد عليها؟"

"أنا أعتمد عليها في فهم رد فعلهم فقط؛ فهذه النار تعني شيئًا من اثنين إما أنهم جلبوا المزيد من الجند، أو أنهم أوقدوا المزيد منها لإيهامنا بذلك، وفي كلتا الحالتين فقد أفقدهم عددنا اتزانهم"

هنا عاد هلفدين إلى الكلام:

"مزيد من الجند يعني مزيدًا من المشاكل"

"لو أن نارهم تعني مزيدًا من الجند فنحن سننزل بعيدًا عنها"

"ولو كانت خدعة؟"

"فهذا يعني أن عددهم قليل ويحاولون إثارة رهبتنا فقط، ولن يشكلوا لنا أدنى مشكلة"

"وقد تكون النار مجرد طريقة لاستدراجنا لمكان تجمعهم"

"نيران عظيمة كهذه ستستنفد قوتهم طوال الليل لإذكائها، والأهم من ذلك أننا قادرون على هزيمتهم حتى في هذا المكان الذي يريدون أن يكون القتال فيه"

"لماذا هذه المدينة يا سيدي؟"

"إنها كالعسل "وانوار"، يجب أن تتحمل لذع النحل البري لتصل إليه"

"وماذا سنفعل غداً؟"

"سنقوم بهجوم هناك عند هذه المنطقة في

الـشرق "هلفـدين" ستـشارك فيـه عـشيرتك وعشيرة "وانوار"

"متى؟"

"عندما يأتي بالدير بالشمس"

"إذًا موعدنا معهم عند الشروق"

"لـو كـان هنـاك فـخٌّ اثبتـوا لهـم أننـا مقـاتلون أشداء لا تجدي معنا حيلهم"

* * *

اليوم الخامس

رحلت ظلمة الليل مخلفة خلفها خمسة مراكب من مراكب النورمان على شاطئ أشبونة، انساب منهم فوق المائة والخمسين رجلاً من أهل الشمال، وراحت أعينهم تدور في هذا المكان الفسيح المنحدر في اتجاه البحر، وقد تناثرت فيه النباتات البرية ذات الجذور السطحية، وأخذت الريح تحمل الجاف منها يمينًا ويسارًا، وتصفر في آذان رجال الشمال

وهم يصعدون إلى أعلى، وانحنى هلفدين على آثار نار كانت مشتعلة:

"لقد كانوا هنا"

"هل يعقل أن يتركوا المكان خاليًا هكذا هلفدين؟"

"كلا لم يتركوه، ألا ترى هذه الفرقة التي تجري هناك؛ لتحذر الباقين يبدو أنهم كانوا يراقبون الشاطئ عند نزولنا"

"هل نتبعهم لنلحق بهم؟"

"انتظر حتى لا يكون فخًا"

"لماذا تقول هذا؟"

"لا أعرف، مجرد حدس"

"الأمر بسيط، سنهاجم هذه الخيام أسفل

السهل هناك؛إن عددهم لن يزيد عن المائة رجل، وقتها سيصير باب المدينة أمامنا"

"ولا نرى القادم من خلف هذه التلة؛ فتستطيع أية فرقة مباغتتنا من الخلف بمجرد أن ننزل لقتال القابعين هناك، هل عرفت الفخ؟"

"والحل"

"نجذبهم إلى هنا حتى نستطيع رؤيتهم، بينما هم يكونون في موضع الهدف السهل عند صعودهم إلينا"

"إنهم سيأتون في كل الحالات"

"لذا يجب أن نعد أرض المعركة، سنشعل النار في هذه النباتات البرية؛ حتى تحجبنا النار

والدخان، ونقابلهم عند صعودهم، وقتها إما ان يخرج لنا المختبئون خلف التلة لمساعدة زملائهم، أو نكتشف أننا كنا مبالغين، وأن الطريق مفتوح لباب المدينة"

نظر هلفدين إلى رجاله الذين اجتمعوا من حوله، وأشار إلى النباتات البرية خلفهم

"أريد أن نشعل النار في هذه الـ.."

ونظر مبهوتًا

"يا للجحيم كيف لم ننتبه إلى أن هذه النباتات منتظمة بطريقة أقرب للصفوف"

وانزاحت النباتات الكثيفة فجأة؛ ليظهر تحتها حفر أسطوانية تسع الحفرة لرجل جالس. وهذه الحفر ممتلئة بالرجال، وقبل أن

يستوعب رجال الشمال الموقف وقف مجموعة من الرماة في حفرهم وأطلقوا نبالهم، في نفس اللحظة كان الصف الثاني من الرماة قد خرج من حفره يطلق نباله، في حين تراجع الصف الأول إلى الخلف وأطلقوا الدفعة الثانية من نبالهم، في حين كان الصف الثالث من الجنود قد تقدم للأمام مستعداً للقتال، وصرخ "هلفدين" و"وانوار" في رجالهم بالتقدم قبل أن يفنيهم الرماة فقابلهم المقاتلون بجسارة، والتحموا معهم في قتال حامي الوطيس بينما انسحب الرماة من الميدان في سرعة:

"الله أكبر"

والتفت رجال الشمال إلى مصدر الصوت

كانت فرقة من الفرسان قد صعدت من خلفهم وهاجمتهم من الخلف

"هلفدين لقد سقطنا بين شقي رحى"

ووقف الرماة في مكان ييسر لهم رمى من خرج منهم من أرض المعركة:

"لقد وقعنا في الفخ"

تلقى وانوار ضربة أطاحت برأسه فصرخ هلفدين بشدة:

"وانوار"

وشعر هلفدين أن رجاله سيفنون في هذه المعركة:

"إلى البحر يا رجال"

بدأ الرجال ينسحبون إلى البحر وينكفئون

.علـى وجـوههم علـى الأرض المنحـدرة ، والرمـاة تتبعهم بنبـالهم، وقفـز إلى المـاء مـن نجـا منهم، وقائـد الجنـد يـدور بفرسـه في سـاحة القتـال، وجـذب عنـان فرسـه وهـو يكـبر والجنـود والفرسان من خلفه:

"الله أكبر .. الله أكبر"

وأخذ يتـابعهم وهـم يعـودون إلى مـراكبهم، لقد نجح في خداعهم هذه المرة.

* * *

اجتمع في بلاط أمير الأندلس جلة من فقهـاء قرطبة وقضـاتها وعلمائها وشعرائها ممـن تـزدان بهم الممالك والقصور، فضلاً عن زينتهـا وترفهـا وزخرفهـا ، وتـصدر المجلـس الأمير وسـيم المحيـا

الأمير عبد الرحمن بن الحكم، ودخل رسوله إلى عامل أشبونة، وخطا إليه ونظرات القلق في عيون الجالسين تتبعه؛ إنه يراها كما يراهم، ويعرف هذه النظرات كما يعرف أصحابها، فمن ذا الذي يجهل يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة وتلميذ الإمام مالك والإمام الليث؟!، ومن ذا الذي يجهل هذا العبقري عباس بن فرناس؟! وتلاقت عيناه بالرجل الذي يقف خلف الأمير نصر الفتى الذي صارت له حظوة في الأندلس وقطع خواطره وصوله إلى الأمير:

"السلام على أمير الأندلس"

"وعليكم السلام، أخبروني يا وضّاح أن

عندك أمرًا هامًّا"

"الأمر يتهدد أمن الأندلس بأسرها يا أمير"

استمع الأمير عبد الرحمن في اهتمام:

"هذه الرسالة من وهب الله بن حزم يذكر فيها هذا الخطر"

وتقدم بالرسالة من الأمير وسلمها له ففتحها وفض ما فيها في حين استطرد وضّاح:

"يقول وهب الله إن أربعة وخمسين مركبًا يرافقها أربعة وخمسون قاربًا احتشدوا قبالة سواحل أشبونة"

كان الأمير قد انتهى من قراءة الرسالة ونظر إلى وضّاح باهتمام:

"هذه السفن يا أمير تهدد أشبونة اليوم، ولا

تدري أين ستكون غدًا ، أما مصير اشبونة فأنا لا أعرف هل هذه الشمس الغاربة ستبيت بين أهل أشبونة أم أنها سترحل عن أطلال اشبونة؟!"

بدا التأثر على وجوه الجالسين

"إن لأشبونة أسوارًا وهمامًا عالية ، ولكن إلى متى ستصمد أشبونة أمام هذا الجيش الغازي، وأي مدننا ستكون التالية ؟"

"هل رأيت المراكب؟"

"رأيتها يا سيدي تملأ البحر كالجراد المنتشر"

"من أين هم؟"

"لا أحد يعرف حتى الآن، ولكن وهب الله

أخبرني أنه سيرسل مع الحمام الزاجل بكل جديد"

"يا كاتب اكتب إلى كل الثغور بالحذر والحيطة ، وأن من يرى هذه المراكب أو يعلم شيئًا عنها يعلمنا فورًا"

"سدد الله خطى الأمير"

"أخبرني يا وضّاح متى حلت هذه المراكب بسواحل أشبونة؟"

"اليوم هو الخامس لها يا أمير"

"هذا يعني أن الأمر قد يكون تطور كثيرًا"

تدخل نصر الفتى قائلاً:

"هل نرسل لباجة لتمدهم بالرجال يا أمير؟ فهم أقرب إليهم"

"ولو تعرضت باجة للهجوم من يدافع عنها؟"

ثم شرد الأمير للحظات وهو يقول:

"وقد تكون الغمة انقضت، غير أننا لا نستطيع المخاطرة"

ثم نظر إلى نصر:

"أريد عيسى بن شهيد في الحال"

* * *

وقف وهب الله بن حزم مع قائد جنده وقائد حرسه؛ ليرى نتائج المعركة، ودارت عيناه بين أجساد القتلى:

"لقد أحصينا من المجوس سبعين قتيلاً في أرض المعركة وكان عدد شهدائنا عشرة"

"والجرحى؟"

"هنــاك عــشرون جريحًــا بــين رجالنــا ، ولم نحصِ جرحاهم فقد اصطحبوهم في فرارهم"

"لقد كان فخًا محكمًا يا أمير؛ لقد نجح القائد في إعداد خدعة مزدوجة؛ فلو تقدموا للخيام الفارغة لباغتهم الفرسان المختفون خلف التلة من الخلف، ولو تنبهوا لهذا يكون الرماة من خلفهم، وعند انشغالهم بالقتال يباغتهم الفرسان من الخلف، ولو تنبهوا للرماة المختفين أثناء انشغالهم بالجنود المصاحبين للرماة سيمنح الوقت للفرسان لأداء نفس الدور"

"لقد كان السؤال الذي يشغلني في البداية ما هي طريقتهم في متابعة أخبارنا؟ وحيث إنهم قابعون باستمرار في البحر ولغتهم غير لغتنا ،

فهـم يعتمـدون علـى متابعـة مـا يجـري علـى الـشاطئ وردود أفعالنـا ، وهـذه المتابعـة قـد تقودهم لنتائج يعتمد عليها؛ لذا كان يجب أن يكـون نـزولهم بالـشاطئ في حـد ذاتـه هـو الخدعـة ، واعتمـدت في ذلـك علـى ثقـتهم بأنفـسهم، وأن تفكـير الجيـوش يتجـه دومًـا للسيطرة على الأماكن العالية"

"لكن الخطر لازال قائمًا فهم فوق الثلاثة آلاف مقاتل، وضربة مثل هذه قد تثيرهم بشدة يا سعيد"

"قوة ما حدث تكمن في إفقادهم الثقة في أساليبهم الحربية يا أمير وليس في عدد القتلى"

"لكن هذا سيدفعهم للتفكير في أساليب جديدة قد لا نستطيع مواجهتها"

"ولكن فترة عدم الاتزان التي سيمرون بها تعني مزيدًا من التفوق لنا ، إن ما حدث سيجعلهم ينظرون تحت كل حجر قبل أن يخطو أحدهم خطوة في أرضنا"

"لقد أرسلت إلى أمير الأندلس بالأمس عدد جيش المجوس"

"نحن في أمس الحاجة إلى المدد"

ابتسم الأمير في وهن ثم قال:

"ما الذي تنوي فعله بعد هذه المعركة؟"

"أريد أن يعرف كل أهل أشبونة أن عدوهم هذا شديد الضعف، وأنهم يستطيعون قهره بالتخطيط السليم والعقل"

علا الحبور وجه وهب الله:

"دع هذه لي ولعلماء أشبونة"

"وأريد أن أخرج بالمتطوعين فقد نتعرض لهجوم شديد خلال أيام"

"لقد أوكلت لك هذا الأمر من البداية"

"هناك اقتراح يا أمير"

"ما هو؟"

"أن نأتي ببعض أهل المدينة للقيام بدفن هذه الأجساد دون الإشارة لأعداد، ونتركهم ينقلون انطباعاتهم لأهل أشبونة"

"فكرة جيدة لإذكاء روح الحماسة عندهم"

"وأنا سأبدأ في إعادة توزيع الجند والمجاهدين"

"أعانك الله، وسأذهب لتدبر أمر أهل

اشبونة، وبإذن الله سأجعل كل أهلها على أتم الاستعداد للقتال. هيا يا سالم"

* * *

انتهى رجال الشمال من صلاتهم، وعاد الوجوم الذي سيطر عليهم بعد المعركة من جديد، واجتمع رجال العشائر إلى زعيمهم غير أنهم لم ينبسوا ببنت شفة؛ فهم لم يتعرضوا لمثل هذه الهزيمة من قبل، وهنا بدأ لودبروك الحديث:

"ما هي أفكارك للانتقام يا سيدي؟"

"الأمر يحتاج إلى مزيد من التفكير"

قاطعه هلفدين غاضبًا:

"التفكير التفكير، وماذا فعل التفكير

لنا؟ لقد أوقعنا في شراكهم"

قاطعه الزعيم في حسم:

"بل وقعنا في شراكهم لأنهم فكروا أفضل منا يا هلفدين، لو كانوا مثلك لكنت الآن جالسًا على عرش مدينتهم"

استشاط هلفدين أمام هذه الإهانة:

"لو كنا هاجمناهم بمجرد وصولنا لانتصرنا عليهم"

"لو كنا هاجمناهم بمجرد وصولنا بكل قوتنا، لاعتصموا بأسوارهم العالية وتصيدونا من فوقها كما تصيدوكم هناك"

"الأسوار العالية، الأسوار العالية إنك لا تفتأ تتحدث عن هذه الأسوار اللعينة"

"وأنـت تنـسى دومًـا أننـا لا نقاتـل القـرويين الذين ألفت الانتصار عليهم، كما تنسى أنني أنا القائد هنا"

"هلفدين اهدأ"

"دعوه؛ فهو يحاول إخفاء فشله"

"بل أنت الذي قدتنا للفشل"

"طالما أنـك بهـذه العبقريـة كيـف خـدعوك وقد نبهتك لذلك؟!"

"النباتات اللعينة"

"بـل لأنـك لا تتـيح الوقـت الكـافي لعقلـك، اتركوني الآن فأنا أريد بعض الهدوء"

ترك الرجال مركب القائد، وبقـي أحـدهم معه:

"لا تغضب من هلفدين فقد مات أعز أصدقائه بين يديه"

"أنا لست غاضبًا منه راجنار، أنا حزين عليه؛ إنه قائد جيد ينقصه الروية والحنكة"

"إذًا فأنت لا تحمل في نفسك منه"

"أنا الآن مشغول بالتفكير في طريقة لاقتحام هذه الأسوار"

"هل هناك شيء يدور في رأسك؟"

"نعم ما رأيك في الطريقة التي اتبعها هؤلاء لمعرفة عددنا؟"

"ماذا تقصد؟"

"رجال يسبحون في الماء ليصلوا إلى هناك، ويجمعون كل ما يستطيعون عن هؤلاء؟"

"ولماذا لا تسبح القوارب"

"لأنني لا أريد تنبيههم لما نفعل"

"فكرة جيدة يا سيدي"

"إذاً سأترك لك هذا الأمر راجنار"

"سأحرص على أدائه سيدي، هل تأذن لي سيدي؟"

وترك راجنار مركب الأمير الذي نظر إلى أسوار المدينة في تحدٍ:

"لنرى يا من تدير هذه الحرب هناك، من ذا الذي يملك حنكة أكبر في القتال؟"

* * *

على ميناء أشبونة جلس اثنان من الصيادين ينظرون إلى البحر في حزن:

"أين هذه الأيام التي كنا نخرج للصيد فيها؟"

"إن هذا هو اليوم الثامن لنا في هذه المحنة"

"منذ توقفت مراكبنا عن الخروج للصيد وأنا أشعر بضيق شديد"

"لقد ندمت ندمًا شديدًا على عدم الانضمام لجيش أشبونة بدلاً من أن أجلس في هذا الضيق"

"لقد سمعت من إمام المسجد الجامع أن لنا دورًا هامًا في الجهاد"

"ونحن جلوس هكذا؟"

"نعم، لقد سمعته يقول إن الذين خرجوا للقاء أعداء الله المجوس في حاجة إلى من

يدعمهم من الداخل"

"لا أفهم"

"هذا لأنك عريض القفا؛ انتبه جيدًا إلى كلامي، لو افترضنا أن المجوس وجدوا ثغرة لدخول المدينة ماذا سيحدث؟"

"سيقتلون من فيها"

"ولو فرضنا أن هناك من رصدهم قبل دخولهم، واجتمع أهل المدينة لقتالهم، سيجد الجند الوقت الكافي للعودة إلى المدينة وحمايتها"

"هذا يعني أننا نجاهد مثل المجاهدين عند بقائنا في المدينة"

"لقد سمعت منه أيضًا أن سيدنا رسول الله

تـرك سـيدنا علـي في المدينـة المنـورة ﷺ

لحمايتها عند خروجه في أحد الغزوات"

"هل تعلم عندما سمعت الذين اشتركوا في

دفـن القتلـى يحكـون عـن القتلـى وقـد امـتلأت

بهـم الأرض؛ حتـى إنهـم فـشلوا في إحـصائهم

تمنيت أن لو كنت مشتركًا في هذه المعركة"

"ماذا كنت ستفعل؟"

"كنت سأقتل مثل هذا العدد"

"يا لك من جبار"

"أنت لا تعرف من أنا عندما ألتحم في قتال"

"ولماذا لم تخرج للجهاد عندما أُذن للجهاد؟"

"خشيت على أولادي الضيعة لو قتلت"

"لقد سمعت من إمام المسجد أيضًا أن قتيلنا

وقتهـا شـهيد ، وأن الله سيـسخر مـن يرعـى أولاده"

"متى قال كل هذا؟"

"فى خطبة الجمعة"

"وأين كنت أنا؟"

"لعلك لم تكن منتبهًا"

"أفكر الآن ماذا أفعل لو رأيت مجوسيًّا؟"

"من هذا؟"

"من تقصد؟"

"هذا الذي يجري بين المراكب هناك"

وانطلق الاثنان خلف الرجل فنزل الماء ونزلوا وراءه:

"اذهب أنت وأحضر الجند"

"لن أتركك"

"اسمع الكلام إن ما ستفعله أهم"

عاد الرجل مسرعًا وترك زميله يسبح خلف المجوسي:

"حتى لو كنت سمكة لن تفلت مني فأنا أمهر صيادي المدينة"

استدار المجوسي للصياد الذي يسبح خلفه وحاول طعنه بخنجره فتفادى الطعنة وأمسك بيده ولواها حتى سقط منه الخنجر، ونشب بينهم قتال عنيف، وانتبه المجوسي للقادمين خلف الصياد مما شغله عنه للحظات استغلها الصياد في توجيه ضربة على مؤخرة رأس المجوسي الذي فقد وعيه، ولوى ذراعه ودفعه

أمامه للشاطئ، واستقبله الرجال وأعانوه على إخراج المجوسي وسط التكبير:

"الله أكبر"

"ماذا نفعل به؟"

رد أحد الجنود:

"يجب أن نأخذه إلى الأمير"

والتفت آخر إلى الصيادين:

"بارك الله فيكم يا أهل أشبونة"

وشعر الصيادان بالفخر، وعرفا دورهما في هذه الحرب.

* * *

الغيث

دخل قائد الجند على وهب الله بن حزم وقائد الحرس وهما جالسان يحاولان فهم حديث الرجل المكبل أمامهم حتى إنهم ردوا سلامه دون أن يلتفتوا إليه:

"من هذا يا أمير؟"

"لقد أمسك به الصيادون في الميناء"

نظر إليه في امتعاض:

"أستطيع أن أتكهن بما يقول، إنه يسبنا أو يتوعدنا"

"إن لغته غريبة"

نظر الأمير إلى السقف ثم قال:

"هل تعلمون لماذا أرسلت لكم؟"

"نعم يا أمير"

"هؤلاء المجوس غيروا طريقتهم، وأرسلوا عيون لتبحث أفضل مكان بالشاطئ لضربتهم المقبلة"

"لا بد أن هناك غيره نجح في مهمته"

"أنا لا أعتقد أنهم وجدوا أفضل من الميناء، هي التي ستقودهم إلى قلب المدينة"

تساءل قائد الحرس:

"هل تعتقد أنها قد تكون خدعة؟"

رد قائد الجند:

"لا أظن ذلك؛ فبالتأكيد هم يريدون الانتقام"

نظر القائد إليهم في حزم:

"من المسئول عن تأمين الميناء؟"

"حرس الأسوار يا أمير، وكنا نعتمد على وجود المجاهدين بالمدينة، وقد تحرك المجاهدون لتأمين الساحل خارج الأسوار"

"وكم يستغرق تحرك الجند إلى هناك؟"

"القضية ليست في الوقت، ولكن مثل هذا التحرك في الليل سيكشف لهم استعداداتنا،

وسيفتح ثغرات في نظام تأمين الشاطئ"

"وكيف لم نستعد لمثل هذا الموقف؟"

"كنا نعتمد على رصد تحركات مراكبهم التي كانت بعيدة دومًا عن موقع الميناء"

تكلم قائد الحرس مقاطعًا:

"دع لي أمر الميناء يا أمير"

"ماذا ستفعل؟"

"سأتحرك بحرس القلعة إلى هناك"

"وهل يكفي حرس القلعة؟"

"يكفي في تأخيرهم حتى يصل خيل المدينة"

"ولكنك قد تعرضهم للفناء"

"إنها الشهادة يا أمير"

"لا حول ولا قوة إلا بالله"

"إن المواقع التي يحتلها الجند والخيل ليست أقل أهمية من الميناء يا أمير، أضف إلى ذلك أن ثمار دعوة العلماء ورؤية هزيمة المجوس السابقة بدأت تثمر"

"ماذا تقصد؟"

"أقصد هذا المجوسي"

"هل تريد أن تستعين بأهل المدينة؟"

"إنها مدينتهم على أية حال وهم من سيتطوع"

"ولكننا هنا لنحميهم لا لنعرضهم للخطر"

"إنه عدو كافر يا أمير ذلك الذي يقف ببابنا ، وسيفنينا لو لم نضح في سبيل إيقافه

وإن لم يكن من الموت بد

فمن العجز أن تموت جبانا"

"يا أمير"

"ماذا هنالك يا قائد الجند؟"

"انظـر إلى هـذا الرجـل كيـف يـستمع إلى حديثنا باهتمام"

"هل تظن أنه يفهمنا؟"

"لا نستطيع أن نخاطر، هـذا الرجل لا يجب أن يخرج من سجنه قبل أن ننتهي من هذا الأمر"

"بالطبع"

ارتفـع صـوت أحـد الحـراس وهـو واقـف بالباب:

"يا أمير هناك أمر هام"

"ماذا حدث؟"

"هناك خلق كثير اجتمعوا بأبواب المدينة من المدن المجاورة جاءوا للجهاد"

"أعز الله الإسلام والمسلمين"

"مرحى لقد بدأ الغيث"

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[محمد:٧] صدق الله العظيم"

* * *

تدفق المجاهدون القادمون من المدن المجاورة إلى مكان الميناء حيث كان حرس القلعة يقفون مع أمير المدينة وقائد الحرس، وقد استحال ليل المدينة إلى نهار، وخرج كل سكان المدينة ووقف الأمير مبهورًا أمام هذا المشهد المهيب:

"لم يكن هناك داعي يا أمير لأن ترتدي زي الحرب"

"وهل أنا أقل من هؤلاء الذين خرجوا في طلب الشهادة؟"

"كلا يا أمير ولكن دورك أكبر من مجرد القتال"

"لا تحاول؛ فلست مستعداً لأفقد فرصة كهذه، ولكن من أين أتى هؤلاء المجاهدون؟"

"معظمهم جاء من باجة"

"لكن تنظيمهم يحتاج إلى مجهود مضنٍ؛ خاصة بعد انضمام أهل أشبونة"

"ولكن هذا يعد بشرى بالنصر إن شاء الله"

"إن ما يشغل بالي لماذا لم يلتفت المجوس

للميناء من قبل؟"

"لا بد أن هناك ما أبعد أنظارهم عن الميناء"

"ما الذي يمكن أن يبعد أنظارهم عن هنا؟"

وشرد قليلاً:

"إن ما يستطيعون رؤيته من بعيد في الميناء هو.."

"المراكب يا أمير، مراكب الصيد والتجارة الراسية في الميناء"

"لقد ظنوا أنها مراكب حربية مثل مراكبهم تحمي هذا المكان، ولعلهم ظنوها مليئة بالجند"

"تمامًا يا أمير"

"يجول برأسي خاطر"

"أن نملأها بالمجاهدين والسلاح"

"ولكن أي سلاح يصلح لمثل هذا القتال؟"

"الحجارة"

صاح الأمير:

"احملوا الحجارة للمراكب"

"سأنظم صعودهم إلى المراكب وشحنها بالحجارة"

"وأنا سأصف المقاتلين"

وتدفقت الأحجار إلى المراكب من كل أنحاء أشبونة.

* * *

وقف قائد النورمان ينظر في قلق إلى المدينة:

"يبدو أن المدينة قد خرجت كلها لقائنا"

"لعلها خدعة يا سيدي لإثارة ذعرنا بعد أن أمسكوا برجلنا هناك"

"لا أدري كيف سقط هذا الأحمق في أيديهم ألم تتبهه إلى أن يختفي عن أعينهم؟"

"إن رفيقه يقول إن رجلين عابثين بين المراكب لا يبدو عليهما أنهما من الجنود لمحاه بالصدفة، وإذا بهما يتبعاه كأنهما جائعان رأيا صيدًا ثمينًا"

"هذه المراكب لكم خدعتنا، وظننا أنها مشحونة بالرجال"

وضحك في هيستريا:

"لنكتشف أنها خاوية معطلة"

"لعلهم عرفوا أننا كشفنا خدعتهم فسعوا

لخداعنا من جديد بهذه النيران التي نراها"

وصمت قليلاً وهو يرمق نظرات قائده ثم استطرد:

"حتى لو أرادوا أن يفعلوا شيئًا فلن يجدوا الوقت الكافي، فكل قواتهم تنتظرنا خارج المدينة ولم يغادروا أماكنهم"

تنهد القائد بعمق:

"أتمنى أن أصدق ذلك"

ونادى بصوت مرتفع:

"يا رجال الشمال الشجعان إن ذهب هذه المدينة ينتظرنا فلننم الليلة في بيوتها أو في جنة فاهالا مع الآلهة والشجعان"

وارتفعت صيحات الرجال المتحمسة:

"إلى القتال يا رجال"

"إلى فاهالا"

ورفع يده مشيرًا إلى الميناء وتحركت المراكب في اتجاه المدينة

* * *

اخترقت القوارب المملوءة بالرجال بين المراكب الراسية بالميناء، وعلى الرغم من عدم توقعهم رؤية هذا الحشد وهذه الصفوف من الرجال المستعدة للقتال بالشاطئ إلا أن نشأتهم الجافة جعلتهم لا يهابون القتال ولا الموت، ونظروا باستهانة إلى أهل المدينة على الشاطئ وقال أحدهم في سخرية:

"لقد وفروا علينا عناء البحث عنهم في أنحاء

المدينة"

"هيا لنذبحهم فهم لا يصلحون إلا لذلك"

"لم أر مقاتلين بهذه السمنة"

"ومن قال إنهم مقاتلون؟ إنهم نعاج"

وتضاحك الرجال وانطلق نفيرهم في نفس الوقت الذي ارتفع صوت وهب الله بالتكبير الذي كان إشارة البدء، وتعالت أصوات المجاهدين:

"الله أكبر .. الله أكبر"

وانهالت الأحجار عليهم من المراكب التي كانت تحيط بهم، وقفزوا إلى المياه محاولين تفادي الحجارة المتساقطة، وتقدم الصف الأول من المجاهدين وحرس القلعة ليباغتوهم قبل أن

يفيقوا من مفاجأة الحجارة، وانقلبت بعض قواربهم لتغرق في الماء، ودار قتال عنيف وتناثرت الدماء والأشلاء بين ضربات النورمان الماهرة وهجوم المجاهدين الجسور، ووقف قائد النورمان في المؤخرة وتساءل:

"ماذا يحدث في المقدمة؟"

تقدم أحد القوارب في سرعة من القائد:

"لقد كانت المراكب والشاطئ محشودين بالمقاتلين"

"لا يعقل أننا خدعنا للمرة الثانية"

"ماذا نفعل؟"

"فلتتقدم المراكب"

وتقدمت المراكب تجاه الشاطئ في حين

كان وهب الله يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا:

"الله أكبر"

"لقد نصرنا الله عليهم"

"الله أكبر"

بدأ الرجال يطاردون الفارين من المجوس

"هناك مراكب قادمة بمزيد من الرجال يا أمير"

دارت عين وهب الله في كل ما حوله والدماء تقطر من سيفه وتلطخ وجهه:

"أشعلوا النار في قواربهم التي تركوها املئوها بالأنفاط وادفعوها عليهم"

أسرع الرجال إلى الماء، وأشعلوا النيران في القوارب، ودفعوها إلى الأمام في اتجاه

المراكب القادمة، ونظر النورمان في عجب:

"ماذا يفعل هؤلاء؟"

واصطدمت القوارب بمراكبهم، وانشغلوا في إطفاء النار التي بدأت تنتقل إليها:

"تراجعوا .. تراجعوا"

وبدأت مراكب النورمان تتراجع بعيدًا عن الشاطئ، وضجت أشبونة بالتكبير ووقف وهب الله بن حزم بين الجموع المنتصرة التي اجتمعت حوله في سعادة وهو يردد:

"الحمد لله .. الحمد لله صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده"

وتقدم أحد الحرس من الأمير وهب الله

"لقد وصلت رسالة من الأمير عبد الرحمن

أمير الأندلس"

التفت وهب الله إلى الحارس مستحثًا إياه على الاستمرار:

"إن مدد قرطبة في الطريق"

"الله أكبر .. الله أكبر"

وابتسم في سعادة؛ لقد بدأت الغمة تزول.

* * *

خيل قرطبة

كانت أشبونة في يوم حصارها العاشر أشبه بخلية نحل في سبيل استيعاب أعداد المجاهدين التي توافدت عليها من المدن المجاورة، وانشغل أهل المدينة بتهيئة أماكن مناسبة لنزول الوافدين وإعداد كميات من الطعام لتناسب أعدادهم، ودارت عيون الوافدين خلف ذلك

الفارس الذي قطع المدينة جيئة وذهابًا ثم وقف ليسأل اثنين من المارة:

"هل رأيتما الأمير وهب الله بن حزم؟"

"نعم لقد تركناه في ساحة المسجد الجامع"

"لقد كنت هناك منذ قليل ولم أجده"

"هذا حقيقي فهو لم يصل إلى هناك إلا قبل انصرافنا منذ لحظات قليلة"

"ومتى انصرفتم من هناك؟"

"نحن قادمان من هناك"

نظر إليهما نظرة شكر، وانطلق مسرعًا فسأل الرجل رفيقه:

"من هذا؟"

"إنه القائد سعيد بن مروان قائد جند

أشبونة"

وتابعت عينا الرجلين الفارس الذي جد سيره ليصل إلى المسجد الجامع:

"يا أمير أشبونة"

والتفت إليه الأمير وهب الله الذي كان مشغولاً في إعداد المكان للوافدين:

"مرحى يا سعيد أقبل"

نزل الفارس عن فرسه وتقدم من الأمير:

"هل أرسلت في طلبي يا أمير؟"

"نعم لقد طلبتك في الصباح وقد شارفنا على الظهيرة"

"اغفر لي يا أمير؛ لقد قطعت المدينة جيئة وذهابًا بحثًا عنك وكلما وصلت إلى مكان

علمت أنك غادرته قبل وصولي بزمن قليل"

ابتسم الأمير:

"لا عليك يا قائد الجند لقد أرسلت لأسأل:

هل مازلت تعاني من نقص الأعداد"

"أصلح الله الأمير لقد مَنَّ الله علينا بالكثير

من جنده"

والتفت الأمير من حوله ليتأكد من عدم

انتباه المحيطين به:

"هناك أمر هام أريد مشورتك فيه"

"ما هو يا أميري؟"

"اتبعني أنت وسالم إلى القلعة"

انسل الأمير وهب الله وامتطى فرسه في

حين أخذ قائد الجند يبحث بعينيه بين

الحضور على قائد الحرس:

"سالم أقبل"

"ماذا هنالك؟"

"أريدك في أمر"

واتجه إلى فرسه ليمتطيه ومن خلفه سالم

"ما الأمر؟"

"الأمير يريدنا بالقلعة"

وانطلق الاثنان ليلحقا بالأمير حتى وصلوا إلى أبواب القلعة، وتجاوزا الحرس دون أن يلتفتوا إليهم، وما إن نزل الأمير عن فرسه حتى بادره سعيد وهم يجدون السير

"يبدو أن الأمر هام"

"ويجب أن يبقى في طي الكتمان"

ونظر إلى الأمام في وجوم:

"أسرعا فخازن الأقوات ينتظرنا بمجلسي"

"الخطب بالنسبة لمخزوننا من الأقوات؟"

"ها قد وصلنا السلام عليكم"

"وعليكم السلام يا أمير"

"حتى لا نضيع مزيداً من الوقت أخبرهم بالذي أخبرتني به هذا الصباح"

"لا أعرف كيف أقول هذا، ولكن هناك مشكلة ما، فقد أخرجنا نصف مخزوننا من الغلال وأصناف الأقوات المختلفة بهدف السيطرة على حالة الأسواق في ظل ظروف الحرب المنتظرة"

رد سالم في ترقب:

"لقد كان هذا ضروريًا لحفظ الاستقرار في المدينة وإعداد أهلها للجهاد"

"ليس هذا هو وجه الاعتراض"

ونظر إلى عيون الموجودين في أسى:

"المشكلة تكمن في تدفق المجاهدين، ومن قبلهم المزارعين المحتمين من هجمات المجوس، مع كل هؤلاء لن يكفي نصف المخزون المتبقي أكثر من سبعة أيام، وبوصول خيل قرطبة سيتقلص هذا الوقت كثيرًا"

"سيتقلص يا إلهي! وكم يومًا ستتبقى لنا؟"

"بحسب عدد الجيش القادم"

قال سعيد في ضيق:

"هل صار وصول المدد مشكلة؟"

"لكل عملة وجهان يا قائد الجند"

هنا تكلم الأمير:

"لقد أرسلت في الصباح إلى الأمير عبدالرحمن لأخبره بالأمر"

"ولكن يا أمير وصول أقوات من قرطبة سيستغرق وقتًا طويلاً"

"ولهذا جمعتكم لأسمع اقتراحاتكم"

"ماذا لو بعثنا لشراء حاجاتنا من المدن المجاورة مثل باجة؟"

"هل يوجد في بيت المال ما يكفي لمثل هذا؟"

"على الأقل يكفي أول قافلة"

"ولكن أنا أريد أن يبقى الأمر سرًّا حتى لا يسود الهلع في المدينة"

"ولكن يا أمير خروج قافلة من المدينة سوف يفضح الأمر"

"إذًا تولَّ أنت ورجالك هذا الأمر يا سالم"

"لا يصلح لهذه المهمة سوى حرس القلعة"

"إذًا ليذهبوا معك"

"وتبقى القلعة بدون حرس؟"

"لقد كانت كذلك بالأمس"

"ولكن يا أمير.."

"اذهب يا سالم فالقلعة ليست في حاجة إلى حرس"

"سيدي الأمير"

التفت الجميع إلى صاحب الصوت الذي اندفع إلى المجلس حتى كاد يسقط على

وجهه:

"ما الأمر؟"

"لقد رأينا مراكب المجوس وقد انقسمت إلى فرقتين تقدمت إحداهما من الشاطئ"

نظر الأمير إلى قائد الجند:

"هل أنت مستعد لمثل ذلك؟"

"نظر قائد الجند إلى الحارس

"والفرقة الثانية؟"

"بقيت حيث هي"

"اسمح لي يا أمير في استطلاع الأمر والعودة للجنود"

"هل أنت مستعد يا سعيد؟"

نظر قائد الجند في قلق:

"نعم مستعد يا أمير"

"إذًا لماذا هذا القلق؟"

"لأن الأمر قد لا يكون كما يبدو"

"كيف ذلك؟"

"هذا الهجوم هو الأكثر ضراوة لهم؛ فلم يهاجموا بمثل هذا العددِ من قبل ولا في مثل هذا الوقت، وقد يكون ذلك لجذب انتباهنا لضرب مكان آخر بالفرقة الثانية"

"ألم تستعد لأمر مثل ذلك؟"

"بلى يا سيدي. ولكن أخشى من حماسة المجاهدين أن يندفعوا إلى مكان الهجوم وينفرط عقدهم"

"إذًا اذهب لتدارك الأمر"

"أمر مولاي"

وانطلق مسرعًا في حين رفع الأمير وهب الله يده إلى السماء وعيناه كلها رجاء.

* * *

وقف قائد النورمان يراقب مراكبهم التي وصلت إلى الشاطئ ودون أن يلتفت إلى الشخص الواقف إلى جواره قال له:

"أرجو أن يفلح هذا معهم"

"إن الرجال متحمسون للانتقام"

لم يُبْدِ أي انتباه لعبارة الرجل واستطرد:

"لقد عرفت منذ وصولنا أن هذه المدينة منيعة، ولكن نفسي حالت بيني وبين الانسحاب"

"أنا لا أعرف من أين أتت كل هذه الأعداد التي رأيناها؟ كيف تتسع مدينة لكل هذه الأعداد، جنود بالشاطئ ورجال بالداخل؟"

"إن عقلك الصغير يحتاج إلى مزيد من الخبرة. إننا نقف على جانب واحد من المدينة ولا نحاصرها، والرجال تصل إليها من الخارج، ألم تر النيران التي انتشرت حولها بالأمس"

"هل هذا يعني أنهم سيظلون في تزايد هكذا؟"

"تمامًا؛ لذا يجب أن نباغتهم اليوم، وإلا فلن نستطيع الهجوم لا على المدينة ولا على أي مدينة في جوارها"

"المدن المجاورة أيضًا؟"

"وصول كل هؤلاء دليل على انتشار الخبر في الجوار واتخاذهم كل وسائل الحيطة والحذر"

"إذًا هذا الهجوم هو الأخير لنا على هذه المدينة"

"أخشى أن نعم"

"وماذا ستقول للزعماء وخاصة هلفدين أكثرهم حماسًا؟"

"نتائج المعركة هي التي ستقول، نتائج المعركة هي التي ستتحدث"

وارتفع أمام عينيه الغبار والدخان من أرض المعركة:

"لا بد أنهم التحموا الآن لنتحرك بقية المراكب إلى هذه النقطة"

وأشار بيده إلى نقطة بعيدة عن أرض المعركة وقريبة من الأسوار الغربية:

"سنهاجم هناك مع انشغالهم بالقتال مع الرجال بالشاطئ"

وتحركت بقية المراكب حيث أشار قائدهم بعيدًا عن أرض المعركة.

* * *

اشتد الجدل بين الفارس الذي أمّره قائد الجند والمجاهدين المتطوعين حتى تعالت نبرات صوتهم:

"يا أمير هل تخشى خوض المعركة؟"

"لقد نشأت منذ نعومة أظفاري في نارها يا هذا"

"إذًا لماذا تريدنا أن نترك إخواننا يتعرضون للهجوم بينما نقف موقف المتفرج؟!"

"أوامر القائد تقتضي ألا نترك المكان حتى ولو سقطت المدينة كلها في أيديهم"

"أي خبل هذا؟!"

"اسمع يا هذا، كونك جئت للجهاد فهذا أمر محمود جزاؤه عظيم عند الله، ولكن حري بك أن تكون مطيعًا للقائد؛ فأمور الكر والفر لا يكفي لها حسن نواياك"

"وما الذي تحتاجه ولا أملكه؟"

"هناك تخطيط وتنظيم وطاعة"

"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"

"وهل طلبت منك معصية؟"

"وماذا تسمي وقوفي متفرجًا وتركي للقتال في سبيل الله؟!"

"وماذا تسمي أنت تركك لموقعك؟ افهمني جيدًا لا أحد يأمرك بمعصية، ولا أحد ينكر عليك حماسك ولا غيرتك على دين الله، ولا كونك جئت مجاهدًا بكامل رغبتك؛ ولكن لكل أمر أوليه ولكل ذكر أهله؛ فإذا تصديت لأمر فأطع أوليه واسترشد بأهله"

لم يحر الرجل جوابًا ولكنه تبرم فاستطرد الفارس:

"كل ما أستطيع القيام به هو ترقب أمر

القائد بالانضمام لإخواننا"

"وإن لم يأمر بهذا؟"

"سنعلم أن الأمر لم يكن يقتضي تدخلنا"

وصاح أحدهم:

"يا أمير هناك فارس يقترب"

"مرحى يبدو أننا سننضم إلى إخواننا ونفوز بالشهادة"

"انتظر حتى يصل الرجل ولا تتعجل الأمور"

وتابعت عيونهم بشغف الفارس القادم منتظرين منه دعوتهم للقتال، وما كاد أن يوقف فرسه حتى قال:

"القائد سعيد بن مروان يأمركم بالثبات في مواقعكم، وعدم التحرك منها لأي سبب حتى

ولو سقطت المدينة"

امتقع وجه الرجل المجادل:

"ماذا تقول؟"

"أوامر القائد ألا يغادر أحد المكان، الاستيصاء بالحذر والترقب لهجوم قد يحدث من البحر"

"ألن تنزل لتنال قسطًا من الراحة؟"

"يجب أن أنبه بقية الجيش حتى لا يغادر أحدهم موقعه؛ فالقائد ينتظر من العدو خدعةً ما"

"وأين الأمير الآن؟"

جذب الفارس عنان فرسه وهو يجيب:

"هناك في قلب المعركة"

وانطلق الفارس مبتعدًا وقد أصاب المجاهدين الحيرة، فتكلم أميرهم في هدوء:

"ماذا سنفعل لو تركنا أماكننا وكانت هناك خدعة ما؟ هل نترك المجوس يطعنوننا في ظهورنا؟"

وارتفع صوت أحد الجنود المراقبين للبحر من فوق ربوة مرتفعة:

"إن مراكب المجوس تتقدم نحونا"

"ليستعد الجميع للمعركة"

* * *

كانت المعركة حامية الوطيس بين مقاتلي الشمال الأشداء والمجاهدين المتحمسين، واصطبغت الشمس بلون الدماء عندما اقتربت

من أن تطول الأرض، ولم تظهر طائفة على أخرى. غير أن النورمان كانوا أقوامًا نشأت على القتال، وكانت ضرباتهم أنجع على عزائم الرجال، وصاح من بينهم أحد زعمائهم بلغته التي أحسها المجاهدون ولم يفهموها

"هيا يا رجال الشمال لقد دارت عليهم الدائرة"

وأحس سعيد بن مروان بأثر رماح الظلمة التي بدأت تنهال على رجاله مع اقتراب غياب الشمس، فأشار إلى رجاله المحيطين به ليزدادوا في حملتهم على عدوهم وهو يكبر:

"الله أكبر، لقد جاء نصر الله ووجبت لنا الشهادة"

وانتشر التكبير بين المجاهدين وازدادت حماستهم فواصل القائد صيحاته:

"نحن الرجال.. خلقنا للنزال.. صبرٌ في القتال.. الله أكبر الله أكبر"

وغادرت الشمس مكانها لتختفي خلف الأفق مع حماسة الرجال، وعندما بدأ الانهزام يدب بين الصفوف ارتفع التكبير من جديد. ولكنه لم يكن هذه المرة صادرًا من المقدمة ولكنه أتى من المؤخرة، والتفت الجميع إلى مصدر التكبير ليجدوا نارًا عظيمة أضاءت الظلمة تجري متقدمة من مكان المعركة، وعلا صوت المجاهدين

"لقد وصل خيل قرطبة.. لقد وصل خيل

قرطبة"

واقتحم فرسان قرطبة ميدان المعركة وانهالت ضرباتهم على المجوس، وبدأ الذعر يدب في صفوف النورمان لهذا التغير الغير متوقع، وتقدم أمير فرسان قرطبة من مقدمة القتال وهو يضرب بسيفه صائحًا:

"أين القائد سعيد بن مروان؟"

"أنا سعيد بن مروان"

"لقد أرسلني الحاجب عيسى بن شهيد لأكون تحت إمرتك"

"وهل جاء الحاجب عيسى بن شهيد بنفسه إلى أشبونة؟"

"نعم وقد انطلق إلى المكان الثاني الذي

يتعرض للهجوم"

"الله أكبر الله أكبر يا جند أشبونة، لقد جاءكم القائد عيسى بن شهيد على خيل قرطبة"

وبدأت بشائر النصر تلوح في الأفق، وبدأ النورمان في التراجع.

* * *

ملوك البحر

أشرقت مدينة أشبونة بعد غياب الشمس، وابتعدت مراكب النورمان عن الشاطئ بين تكبير المجاهدين وصهيل خيلهم، وقد علتهم مسحة من الحزن، وأسرع زعماؤهم إلى قائدهم وهم يراقبون المدينة التي أصبح ليلها

نهارًا:

"أنا لا أفهم ما جرى لكم يا أبناء دانماركة، يا أهل الشمال الشجعان كيف تنهزمون هكذا؟"

"سيدي القائد لقد كنا على وشك النصر حتى جاءهم المدد"

"ومتى كنا نبالي بمدد؟"

"لقد كان المدد هذه المرة وكأنه من عالم العمالقة، وكأن "لوكي" يريد التعجيل بنهاية العالم"

رد القائد بصوت كهزيم الرعد:

"وهل يخاف نسل المقاتلين العظام من عمالقة "لوكي"؟"

"يبدو أن "أودين" قد تخلى عنا"

"مالي أرى هلفدين صامتًا هكذا؟!"

مسح هلفدين قطرات من دم متجمد على جبهته:

"لا أعرف ولكن يجب أن يكون هناك خطأ لا نراه، لابد من ذلك"

"قل إنك لا تجد من تحمله وزر الهزيمة هلفدين"

"هناك الكثير من الأخطاء حتى إن الآلهة قد تخلت عنا"

"يجب أن نعترف بالحقيقة هلفدين، لقد أخذتنا العزة ورفضنا أن نعترف أن هذه المدينة أحصن من أن نقاتلها"

"ومن اختارها؟"

"أنا اخترتها، ظننت أننا نستطيع بمزيد من الجهد أن نتغلب عليها ولكن كنت مخطئًا"

"كنت مخطئًا!!"

"على الأقل كنت بالشجاعة التي جعلتني أعترف بخطئي، وأنا هنا أدعوكم لمغادرة هذا المكان"

"بعد كل هذا نتركهم"

"هل هناك من يعارض؟"

نظر هلفدين إلى المجاورين له:

"نعم أنا أعارض بل كلنا نعارض، من منا لم يفقد عزيزًا أمام هذه الأسوار؟!"

"أنت تعلم أنهم سبقونا إلى فاهالا"

"وفاهالا لا تفتح أبوابها إلا للأبطال الذين لا يهابون الموت"

"أنت عنيد يا هلفدين"

"أنت من استحثني على الحديث لو تذكر"

نظر القائد إلى زعماء العشائر:

"هل توافقون على ما يقول هلفدين؟"

لمح القائد هزات رءوسهم الواهنة في أضواء المشاعل الخافتة:

"إذًا فأنتم تريدون الانتقام"

"نعم أيها القائد"

"إذا لنصل إلى أمر وسط سأعطيكم فرصة ليومين، سنغادر بعدهما بلا تأخير لو لم تستطيعوا إثبات أن الأمر يستحق عناء

الانتظار"

"ولكن هذا ليس عدلاً"

وبحث عن الدعم في العيون التي تحاشت النظر إليه:

" يومان قليلان"

"لقد انتهى الأمر هلفدين يومان فقط"

* * *

استمع الحاجب عيسى بن شهيد إلى الأمير وهب الله بن حزم وقائده سعيد بن مروان عندما كان يراقب مراكب النورمان من فوق القلعة:

"لقد مررتم بأوقات عصيبة"

"أحد عشر يومًا يا أمير"

"ولكن الحق يقال: إنكم ضربتم المثل في الصمود"

"هذا كرم من الأمير فلولا وصوله مساء أمس لساء حالنا"

"بل الله يؤيد بنصره من يشاء".

دارت عيناه كعيني صقر في أنحاء المدينة ثم استطرد:

"أما عن المؤن والميرة فلا تقلق يا أمير؛ فقد أرسل الأمير عبدالرحمن قافلة كبيرة وهي على وصول"

ظهرت الطمأنينة على وجوه الرجال:

"كنت سأخبركم بالأمس، ولكن الظرف لم يسمح فقد انشغلنا بالقتال"

"إن ما يغيظني أن هذه المراكب بعيدة عن أيدينا"

"صدقت يا سعيد المشكلة فعلاً إن هذه المراكب بعيدة عن متناول أيدينا لا نستطيع الوصول إليهم خلف المياه التي يتحصنون بها"

حدق سعيد في وجه عيسى

"هل فهمي سليم تريد أن تنازلهم في البحر"

"إن الأندلس بأسرها يجب أن تتعلم النزال في البحر؟"

اعترض الأمير وهب الله في قلق:

"وهل عندنا القدرة على ذلك؟"

"ألم ينشئ معاوية بن أبي سفيان في عهد عثمان - رضى الله عنهما - أسطولاً كبير

أنف الروم ملوك البحر من قبل؟" .

"أنا لا أقصد قدرة الأندلس على امتلاك أسطول، أنا أقصد قدرتنا على منازلة هؤلاء في البحر"

"ماذا نحتاج لنكون قادرين على منازلتهم في البحر؟"

"نحتاج إلى مراكب حربية ورجال مدربين على الحرب في البحر"

"ألا تصلح مراكب الصيد ومراكب التجارة؟"

"ولكنها ليست معدة للحرب"

"ومراكبهم ليست التي تثير الذعر في المعارك"

رد القائد سعيد:

"ولكني سمعت ذات مرة من أحد الصيادين أنها على الرغم من بساطتها إلا أنها قادرة على شق عالي الموج"

"وهل ذلك يعني أنها قادرة على القتال أيضًا؟"

"ولكن مَن بها مِن رجال احترفوا الحرب في البحر"

"ونحن سنعوض هذه بالمفاجأة"

واتجه بنظره إلى المراكب القابعة في البحر واستطرد:

"مفاجأة أنهم صاروا مدافعين لا مهاجمين"

شعر سعيد بن مروان بالحماس، ولمح القلق في عيون ابن حزم فقال في سرعة لبث الثقة في

نفسه:

"وهناك الكثيرون على أتم الاستعداد للمشاركة في ذلك"

"في البداية هل ابن حزم موافق؟"

ابتسم ابن حزم في وجوم:

"لله الأمر من قبل ومن بعد"

"أرى فيك التردد"

"لقد أرسلك الأمير عبد الرحمن لتولي الأمر"

"ولكنك مازلت الأمير هنا والأمير عبدالرحمن أرسلني لأعمل تحت إمرتك"

"فقط أنا أخشى على المسلمين"

"إن ولينا الله، فلا تحزن وتوكل عليه"

"توكلنا على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"

"إذاً لنستعد ليكون موعدنا معهم الصبح، أليس الصبح بقريب"

* * *

كان القلق بادياً على وجه هلفدين وهو ينظر إلى شاطئ أشبونة فبادره "لودبروك" قائلاً:

"لقد أوشك اليومان على الانقضاء ولم نفعل شيئاً"

"لقد كاد أن ينفجر عقلي من التفكير في مخرج من هذا الموقف"

"أرى أن نطيع القائد وننسحب"

"إن أراد أن يعترف بالهزيمة فليعترف هو، أنا لم أهزم"

"هلفدين العواقب ليست جيدة؛ لقد خرجنا من أرضنا لهدف فلا يجب أن ننساه وننشغل بأمور أخرى"

"أليس هو القائل إن من يريد العسل عليه أن يتحمل لذع النحل؟"

"ولكن اللذع شديد يا هلفدين لدرجة لا تطاق"

"والعسل بالداخل أحلى وأشهى"

"ما هذا الذي هناك؟ هل ترى ما أرى؟"

"هل يعقل هذا؟"

"لقد خرجوا بمراكبهم"

"ولكنهم لم يقاتلوا من قبل في البحر"

"من الواضح أنهم غيروا أساليبهم"

"بل يبدو أن هؤلاء القادمين الذين شاهدناهم بالأمس عندهم القدرة على القتال في البحر"

"إن هذا يقلب موازين المعركة"

"نحن الأفضل "لودبروك" في هذا المضمار اذهب أنت لإخبار روفوس"

بدا العجب على لودبروك كيف جرؤ هلفدين على ذكر اسم القائد مجردًا هكذا:

"هيا لودبروك اذهب إلى القائد لتخبره"

انطلق لودبروك بقاربه، وهو ينادي بصوت مرتفع على القائد، وينبه المراكب للخطر القادم في حين امتلأت عينا هلفدين بالتحدي:

"مرحى يا هؤلاء لقد أنقذتموني من مأزق

وجئتم إلى هلاككم"

واقتربت المراكب في هدوء من مراكب النورمان التي اصطفت للقائهم، وارتفعت صيحات الله أكبر وقال هلفدين في ازدراء:

"إن صيحاتهم تصيبني بالرهبة"

رد أحد الرجال من خلفه:

"إنها تصيبني بالرعب يا سيدي"

"مقاتلي الشمال لا يصيبهم الرعب يا أحمق. فهم الرعب نفسه"

وانهالت موجة من النبال على مراكب النورمان:

"احتموا بدروعكم احتموا بدروعكم وتقدموا نحوهم"

رفع الرجال دروعهم ليحتموا بها حتى استطاعوا الاقتراب من المراكب التجارية ذات الجوانب العالية فانهالت عليهم الحجارة منها، وقفز النورمان من مراكبهم إلى مراكب الصيد محاولين الاستيلاء عليها من المجاهدين، وخالطت الدماء مياه البحر ودارت المعركة على أسطح المراكب، وطال أمد القتال حتى بدأت الشمس رحلة السقوط، وتراجع ما تبقى من مراكب أشبونة إلى الشاطئ مع صيحات أهل الشمال.

واجتمع زعماء العشائر إلى قائدهم، وصاح هلفدين في انتصار:

"هل رأيت لقد سحقناهم، لقد دارت الدائرة

عليهم"

أطرق القائد قليلاً:

"على العكس هلفدين لقد اقتحموا علينا أسوارنا، في حين أننا عجزنا أمام أسوارهم"

"ماذا تقول يا سيدي؟"

- "لقد كانت هذه المياه منذ حللنا بها ملاذًا آمنًا لنا لطالما فصل بيننا وبينهم، اليوم عبروا هذا الحائل وهاجمونا في عقر دارنا"

"ولكننا هزمناهم"

"من فشل مرة قد ينجح عندما يحاول التجربة، وهم تأتيهم الإمدادات ونحن بعيدًا عن أرضنا، هلفدين قل لي من أين نعوض خسائرنا؟ لقد نجحوا في وضعنا في موضع المدافع"

"نستطيع أن نقلب الأوضاع من جديد ونهاجمهم على الأرض"

"حقًا وعندما تهاجم مراكبهم مراكبنا ونحن على البر من يدافع عنها؟"

"ليبقى نصفنا بالمراكب لحمايتها، ويقاتل النصف الآخر على الأرض حتى النصر أو الموت"

"حتى ؟ هذه الكلمة ليست مناسبة فليس هناك حتى؛ فالوقت في صالحهم. مزيد من الوقت يعني مزيدًا من الإمداد لهم، ولعل المراكب في طريقها الآن إلينا في هذا النهر اللعين، أما نحن فالوقت يعني مزيدًا من القتلى والخسائر والضعف حتى نتساقط في أيديهم؛ لقد انضم الوقت إلى فريقهم"

"هل تريد الإخلال باتفاقك، لقد وعدت أننا لو استطعنا إثبات أن الأمر يستحق عناء الانتظار سنبقى"

"ولقد ثبت العكس"

"يا سيدي ..."

"لقد جئنا لنهاجمهم، لا لنصبح هدفاً لهم، أعدوا العدة للرحيل في الصباح"

شعر هلفدين بالهزيمة عندما رأى زعماء العشائر ينفضون من حوله فعاد إلى قاربه دون مزيد من الكلام.

* * *

أصاب وهب الله بن حزم همٌّ شديد وهو يحصي خسائر معركة اليوم المنصرم، في حين

انشغل الرجال بإعداد المراكب المتبقية من جديد بأوامر من الحاجب عيسى بن شهيد ، واقترب منه وهب الله بن حزم:

"إن خسائرنا كبيرة"

"كان لابد من التضحية، ولكل معركة خسائرها"

"كنت أعرف أنه لا طاقة بنا لحرب البحر هذه"

"من قال ذلك؟ لقد أبلى الرجال بالأمس بلاءً حسنًا"

"بلاءً حسنًا"

"لا تنس فرق العدد والعدة بين مراكبنا ومراكبهم، ورغم ذلك حققوا نتائج جيدة"

"وهذه الخسائر؟"

"هم أيضًا عندهم خسائر"

"ولكن ليست مثلنا"

"لننظر ماذا سيفعلون اليوم"

"وماذا تنتظر اليوم؟"

"لو حققنا ما حققناه بالأمس، سيبرهن ذلك لهم أنهم صاروا بمتناول أيدينا"

"وبماذا سيفيدنا هذا؟"

"الكثير؛ فهؤلاء لصوص بحر يتصيدون الفرص ويعودون إلى بيتهم الآمن، ماذا لو أثبتّ لهم أن بيتهم الآمن صار مهددًا؟"

"تقصد أنهم سيرحلون"

وارتفع صوت أحد الرجال:

"يا أمير يا أمير"

"ماذا هنالك؟"

"إن المجوس يرحلون"

"ماذا؟"

وانطلق الرجلان في سرعة ليرتقيا مكانًا مرتفعًا يرون منه مراكب المجوس المبتعدة:

"لقد رحلوا يا ابن شهيد، لقد صدق حدسك"

ابتسم ابن شهيد وهو يراقب المراكب التي أخذت في التضاؤل والتضاؤل خلف الأفق، وضجت المدينة كلها بصيحات الله أكبر.

"الحمد لله"

"لقد انكشفت الغمة ورحل المجوس من

أمام سواحل أشبونة"

"الآن نستطيع أن نرسل إلى الأمير عبدالرحمن برحيل المجوس عن أشبونة بعد أن حلوا قبالة سواحلها لثلاثة عشر يومًا"

"نعم يا ابن حزم ولكن لا تنس الحذر والحيطة حتى تكون مستعدًا لو عادوا ثانية"

* * *

الشمال والجنوب

كان هناك شيء مفقود بين مقاتلي الشمال لم يعرفوا كنهه، فقد تخلت عنهم الروح المقاتلة العنيدة التي كانت تحدوهم في رحلاتهم، وبدأ سؤال هام يطرق بالهم هل سيلاقون ما لاقوا من قبل في بقية رحلتهم؟ وهل ستصمد أمامهم كل مدينة يصلون إليها؟ وهل

سيعودون إلى أرضهم يجرجرون أذيال الخيبة؟ إن الخوف من كون زمن مجدهم وانتصاراتهم قد أوشك على الرحيل بدأ ينهشهم تاركًا جراحًا غائرة في نفوسهم تضافرت مع خسائرهم الفادحة.

وواصلت مراكبهم رحلتها الطويلة حول جزيرة الأندلس حتى بدأت تلوح لهم الأرض؛ فأمرهم قائدهم بالتوقف وأمر بعض القوارب باستطلاع المكان، واجتمع بزعماء العشائر:

"أرى أننا قد اقتربنا من الأرض من جديد، ولا أظن أننا نستطيع خوض حرب بمثل هذه الروح"

"أي روح؟"

"الروح الانهزامية والثقة المفقودة."

تكلم هلفدين في أسى:

"ومن أين نأتي بهذا هل نصطاده من البحر؟"

"اسمع هلفدين إن أفضل ما فعلنا في الأيام السابقة هو مغادرتنا لهذه السواحل المشئومة، انظر إلى الأمام إن هناك أرضًا تنتظرنا"

"تريد أن تعيد الكرة؟"

"هذه المرة سنحسن الاختيار سننتظر هنا حتى نجد المكان المناسب للنزول؟"

"تقصد حتى يكتشفونا ويستحيل النزول"

"نحن لا نستطيع المغامرة ثانية هلفدين"

"قل إنك لم تجرؤ على المهاجمة لا أولاً ولا ثانيًا، قدتنا بخنوعك وانتظارك، وبخططك التي لا تنتهي إلى خسائر فادحة"

"هلفدين لقد صار تطاولك غير مقبول"

"بل قيادتك هي الغير مقبولة"

"تعلن العصيان؟"

"بل أعلن خلعك من القيادة"

"فلندع هذه الأمور ليحكم فيها الملك عند عودتنا"

"بل يجب أن نقرر من الآن ما الذي يجب أن نفعله؟"

"هب أنك أنت القائد ماذا ستفعل؟"

"سأنزل بهذه الأرض فورًا دون انتظار أو تلكؤ لو كانت صالحة لرسو المراكب"

"هل توافقون على ما يقول هلفدين؟"

نظر زعماء العشائر إلى بعضهم في تردد

فقال هلفدين في غضب:

"إن عشيرتي قادرة على الذهاب بمفردها لهذه الحرب"

أما أنا فلا أوافق على ما يقول هلفدين"

ترك هلفدين مركب القائد غاضبًا دون أن يلتفت إليه:

"هل هناك من يريد أن يلحق به؟"

قام لودبروك متابعًا هلفدين ثم تلاه اثنان آخران:

"هل مازال هناك من يريد أن يتبعهم؟"

صمت الجميع ولم يرد أحد

"الآن ليذهب هو ومن معه إلى حيث يريد، ولتستعدوا أنتم لمواصلة الرحلة إلى حيث أريد ووقتما أريد"

"بالطبع يا سيدي ولكن نريد أن نعرف ما هي خطواتنا المقبلة"

"سنرسل بعض القوارب لتستطلع الشواطئ، وعلى هذا الأساس سنختار المكان المناسب"

"وماذا نفعل حتى هذا الوقت؟"

"التزموا الطاعة فقد انقضى زمن الفوضى، وأظنكم أنتم من رفضها وفضل البقاء"

انصرف زعماء العشائر إلى مراكبهم وبقي راجنار فالتفت إليه القائد:

"هل تريد شيئًا راجنار؟"

"كنت أريد الحديث في أمر هلفدين"

"هل تريد الذهاب خلفه؟"

"كلا يا سيدي ولكن يحزنني ما حدث من فرقة"

"لا تحزن راجنار فأنا قصدت ما حدث"

"لا أفهم يا سيدي"

"إن الأمر لم يعد يحتمل من يبث روح التشرذم بيننا، وعلينا أن نستعد للمعركة المقبلة"

"لذا أردت أن يرحل هلفدين"

"ليس تمامًا، ولكن هذه الأرض على ما يبدو تقع تحت سلطة واحدة، وتتدفق قواتها حيث تصاب بالخطر، وهجوم هلفدين هناك سيجذب أنظارهم حيث هلفدين ومن تبعه مما يترك لنا مجالاً واسعًا في حربنا"

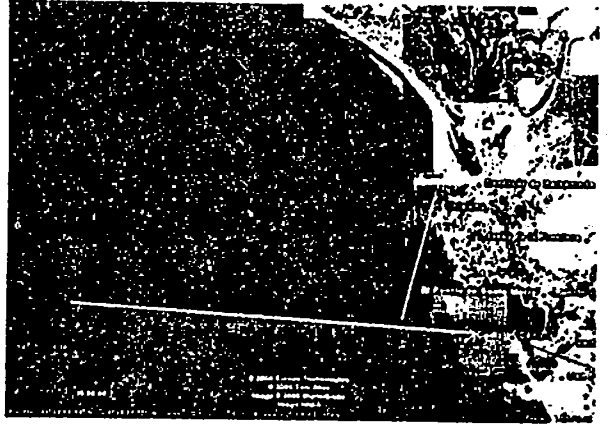
"وبهذا تكون أسقطت عصفورين بحجر"

"هل فهمت الآن؟"

"إذًا لماذا لم تخبر هلفدين بذلك ليكون أكثر حذرًا؟"

"لقد رأيته بنفسك راجنار، لم يرغب في الاستماع واختار مصيره بيده؛ ليجرب الآن الا

يجد من يلقي عليه المسئولية، وأن يكون هو صاحب القرار".



موقع مدينة قادس وشذونة ومصب نهر الوادي الكبير وتخيل لخط سير حملة الفايكنج في جنوب الأندلس

* * *

انتشر خبر ظهور المجوس من جديد عند مدينة قادس في كل أنحاء الأندلس، وأثار عاصفة شديدة خبر توغلهم إلى مدينة شذونة، ولم يكن علماء أشبيلية هم الوحيدين الذين اجتمعوا إلى أمرائهم حين اجتمعوا بعامل الأمير عبد الرحمن على أشبيلية والقلق باد على وجوههم.

"لقد تواردت الأنباء من شذونة يا أمير بأن المجوس حلوا بها"

"أمر محزن حقًا"

"القضية ليست قضية أمر محزن أم مفرح فمدينتنا بلا أسوار يا أمير"

"وما الجديد في ذلك؟"

"العدو القادم يا أمير"

"وما الذي يدعوكم لتصور أنه قادم إلينا؟"

"توغلهم إلى شذونة"

"ليس هذا معيارًا يقاس عليه"

"وما المعيار إذًا؟"

"إن وصولهم إلى هنا يستدعي اجتيازهم لسهل الفرنتيرة ووادي لكة وشريش، ولن يدعهم الأمير عبد الرحمن حتى يحدث كل هذا، ولقد سمعت أنه أوفد جيشًا إلى هناك"

"ماذا إذًا لو أتوا المدينة من نهر الوادي الكبير؟"

ضحك الأمير في جذل:

"وهل استطاعوا الفراغ من قادس وشذونة حتى يجتازوا نهر الوادي الكبير"

"إن قادس وشذونة ليستا بعيدتين، وعودتهم إلى النهر أمر وارد"

"إذا سمعنا بتراجعهم من هناك وقتها نستطيع أن ننشر الجند بساحل النهر"

"وهل تثق بقدرتنا على فعل ذلك في الوقت المناسب؟"

"إنكم تضخمون الأمور إن أشبيلية بعيدة كل البعد عن طريقهم"

"ومتى تكون ضخمة يا أمير عندما نجدهم في بيوتنا؟"

"نحن قادرون على ردهم ولن يجرؤ أحدهم على وضع قدمه على أرضنا"

رد القاضي في هدوء:

"لن نجادلك يا أميري في هذا ، ولكن سنطلب منك فقط أن تفترض محض افتراض أننا استيقظنا صباحًا فوجدناهم في النهر أمام مدينتنا ماذا سنفعل؟"

"إن مثل هذه الأفكار وترويجها أخطر علينا ألف مرة من المجوس"

نظر علماء أشبيلية بعضهم إلى بعض نظرة ألا فائدة:

"فليأذن لنا الأمير بالانصراف"

"قبل أن تتصرفوا يجب أن تكونوا على ثقة أن أشبيلية آمنة ، وأن جندها أكفاء ومتيقظون فلا داعي للقلق؛ فاطمئنوا حتى يهدأ أهل المدينة. فما تفكرون فيه ينتقل إليهم بصورة أو

بأخرى"

خرج العلماء من مجلس أمير أشبيلية والغم يبدو على وجوههم.

"ماذا نفعل الآن يا إمام؟"

"وماذا نفعل بعد ما قاله الأمير؟"

"هل نستحق ان نكون علماءً لو صمتنا وتركنا هذا الخطر يتهدد أشبيلية؟"

"وماذا نفعل؟ نروج الشائعات كما ادعى الأمير؟"

"هل تخشاه؟"

"أنا لا أخشى إلا الله"

"إذًا لماذا نبالي بحديثه؟ دعه يقول ما يقول ونفعل نحن الصواب"

"إنـه ولـي الأمـر، وهـو أدرى بهـذا الأمـر منـا ، ولا نملك إلا النصح له وقد كان"

"وإن لم يستجب؟"

"وما يدريك أنه لم يستجب لقد رأيت بنفسي الجند وهم يراقبون النهر"

"وهل هذا يكفي لحماية مدينة بلا أسوار؟"

"إنـه يؤكـد أن الجنـد قـادرون علـى حمايـة المدينة".

"لا أدري لمـاذا تحـاول التمـاس العـذر لـه يـا إمام؟ إن الأمور واضحة"

"وماذا نملك؟"

"نملـك كلمتنـا الـتي هـي كافيـة لتشعل اشبيلية"

"وتعرض المدينة لخطر الفتنة في مثل هذه الظروف؟"

• "كل ما أريده حشدهم للجهاد"

"لم ينه أحد عن ذلك، وإنما نهى الحاكم عن إثارة ذعر الناس وإثارة الفتنة"

"إننا في حاجة لجلسة طويلة نناقش الأمر ثانية بهدوء فالمغرب قد اقترب"

"إذًا لنكمل حديثنا بعد المغرب"

"ليكن الإفطار عندي اليوم يا إمام"

"بل عندي ولا تتعجل دعوتنا على الإفطار؛ فمازلنا في أول ثلاثة عشر من المحرم وهناك غدًا الرابع عشر وبعده الخامس عشر"

* * *

جلس أحد الشعراء على ضفة النهر يراقب انعكاس نور البدر المكتمل على صفحة النهر؛ فأخذته الفكرة، وبدأ في نظم أبيات من الشعر حتى رأى صورة البدر تهتز أمامه، فتساءل في غضب: من ذا الذي يعكر صفو مثل هذه الصورة؟، وبحث بعينيه إنها المجاديف، وهل يبحر أحد في مثل هذا الوقت؟ لا بد أنه مجنون ليفعل مثل هذه الفعلة بل بالتأكيد مجنون؛ فكيف يتخير مثل هذا الشكل البشع لمركبه بهذا الرأس البشع في مقدمتها؟.

ياللهول إنها ليست مركبًا واحدة إنها مراكب مملوءة بالرجال فوق الأربعين مركبًا، ما هذا هل هؤلاء هم المجوس الذين

طار حديثهم القابض إلى الأندلس كلها؟. إن الأمر خطير، يجب أن يذهب إلى أشبيلية فورًا لينبه أهلها ، ولكنه بعيدًا عن المدينة ولن يصلها قبل الفجر، وحتى لو وصل قبل ذلك من ذا يكون متيقظًا في مثل هذا الوقت بل لابد أن يستيقظوا ، وأطلق ساقيه للريح وعيناه ترمق المراكب التي شقت عباب الماء بقيادة ذلك الرجل صاحب الخوذة ذات القرنين، والذي تصدر المراكب وهو يحثهم على التقدم، وهم يضربون الماء بمجاديفهم.

لقد حالفه الحظ هذه المرة فالنهر صالح للملاحة لمسافات بعيدة ، والقرى بادية على جانبيه ولكنه يريد ذهب المدن، لقد أخطأت يا

هلفدين عندما خالفتني، ولكنك ستلقى جزاءك هنــاك؛ ليعــرف كــل النورمــان أنــني القائــد "روفوس" أعظم قواد الملك "هوريك" ليعلموا أنني أقود من يطيعني إلى النصر ومن يعصاني سيهلك نفسه، الآن حانت الفرصة ليؤكد لهم حماقتهم

"هناك مدينة يا سيدي"

ونظـر إلى أشـبيلية لـيرى ذلـك المشهد المهيـب تحت أضواء القمر:

"لقد حان وقت حصاد ذهبك"

"ماذا يا سيدي؟"

"يـا رجـال الـشمال الـشجعان لقـد حانـت اللحظـة الحاسمـة الـتي انتظرناهـا منـذ خرجنـا من ديارنا، اليوم سنجني ثمار تعبنا، ونثبت أننا

من نسل أبطال الشمال، وأننا نستحق أن نحيا معهم في فاهالا ، يا رجال الشمال بيوت هذه المدينة تناديكم فأجيبوا نداءها"

وانساب الرجال إلى الشاطئ كالجراد المنتشر واشتعلت النار في كل مكان.

* * *

وضع كارلوس الأوراق التي في يده على المنضدة ونظر إلى البروفسور خوسيه

"ما هذا يا سيدي؟ إن القصة لم تكتمل بعد"

"لقد توقف كاتبها عند هذه النقطة"

"دون أن يكملها"

"بل أكملها في مرة منفصلة"

وأمسك بروفسور خوسيه عويناته ومسح

زجاجها:

"لقد شارفت على إنهاء الجزء الخاص ببقيتها"

"إذًا لماذا لم تضمها إليها؟"

"لم أحب أن أتجاوز ما وقف عنده الكاتب"

"هل لي أن أراه؟"

"دعني أتمه أولاً كارلوس"

"ولكنني أريد أن أكون أول من يطّلع عليه"

"بالطبع يا عزيزي"

"أتركك الآن يا بروفسور لتنهي هذا العمل الشاق"

وعاد البروفسور إلى إكمال قصة النورمان مع خيل قرطبة.

* * *

محمد عبدالفتاح حسين عيسى

٢٠٠٨/٣/١٦